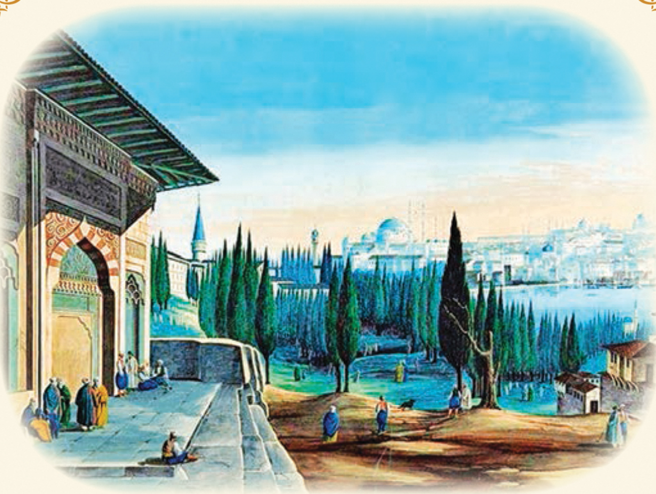


مدرسة التفكر

الكون والقرآن والإنسان

عثمان نوري طوپباش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

إسطنبول: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

اسم الكتاب: Mekteb-i Alem Kainat, Kur'an ve İnsan

اسم الكتاب بالعربية: مدرسة التفكر–الكون والقرآن والإنسان

تأليف: عثمان نوري طوبّاش

المراجعة والتدقيق اللغوي: محمد عز الدين سيف

ترجمة: خليل أوروت

تصميم وتنضيد: حسام يوسف.

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

تم طباعة هذا الكتاب بموافقة الناشر الأصلي Yüzakı Yayıncılık

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٣٦٩٢

Language: Arabic

العنوان:



Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 3/60 - C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Faks : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org



مدرسة التفكر

الكون والقرآن والإنسان

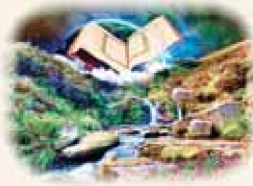
عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم

فهرس

القسم الأول:

مدرسة التفكر: الكون والقرآن والإنسان/ ١٦



إن الإنسان الذي يتفكر في الكون يدرك عظمة نعمة التفكر التي أكرم الله تعالى ابن آدم بها.

وعندما يتفكر الإنسان في سبب هذه النعمة، عليه أن يشكرَ ربه مرة أخرى. ذلك أن خلق الوسائل والأدوات من أجل التفكر الذي يُعد مفتاح الإيمان والعبادات التي يصل بها الإنسان إلى الفلاح، إنما هو عون عظيم من الله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني:

ثمة ناصحان للإنسان بشأن غفلته عن الموت وهروبه منه: أحدهما ينادي الإنسان بأجمل الكلمات وأدق العبارات، والآخر ينصحه بلسان الصمت.



الأول هو القرآن الكريم، والآخر هو الموت. وخير شاهد على هذا الحال حجارة القبور التي تصرخ ولا يسمعها الإنسان.

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

الحمد لله الذي خلقنا من عدم في أحسن تقويم، وأسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ننال بالانتساب لأمته عظيمَ الشرف في الدارَين، ويتجلى حسنُ عبوديتنا لله بالاقتداء به، وتتحقق طاعتنا لله بطاعته.

أيها القرَّاء الأعزاء!

إن غاية وجودنا في هذه الحياة الدنيا ما هي إلا التعرف إلى الخالق وإدراكه، والتفكر في آلائه، وبلوغ الكمال بذكره، ثم بلوغ مرضاته؛ فالعبودية لربنا سبحانه وتعالى تتضح في قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)

يقول النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الآية:

"ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها" (ابن حبان: صحيح، ٢، ٣٨٧)



ويقول الله تعالى في الآية التي تلي الآية السابقة:

﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران: ١٩١)

فالتفكر مفتاح العبودية لربنا سبحانه وتعالى، والانتساب الحقيقي لأمة النبي عليه الصلاة والسلام.

وهو مفتاح الإيمان..

ومفتاح العلم، والعرفان، و"**معرفة الله**"...

ومفتاح الاستعداد للآخرة، والنجاة من الاغترار بلذائذ الدنيا...

إن ربنا ﷻ الذي كان أول أوامره لنا هو: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (العلق: ١) قد جعل هذه الدنيا مدرسةً، وأكرمنا في هذه المدرسة العظيمة بثلاثة كتب تُقرأ بهدي رسول الله ﷺ أسوتنا الحسنة، ثلاثة وسائل للتفكر، ألا وهي:

الكون، والقرآن، والإنسان...

فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، ومرشد البشر إلى السعادة، ودليلهم في الدَّارَين.

والكون كتاب فريد يعرض لنا تجليات عظمة الله وآثار قدرته.

والإنسان جوهر هذَين الكتابَين، وفهرسهما وسرهما...

إن العلم النافع الحقيقي لا يكون إلا من خلال قراءة هذه الكتب العظيمة الموجودة في مدرسة التفكر، وفهمها واستيعابها، ثم العمل على تطبيق محتوياتها والعيش وفقها.

والغاية الأساسية لخلق العقل استعمالُ مفتاح التفكر في إطار القرآن والسنة.

ووظيفة القلب الحقيقية رؤيةُ دلائل قدرة الله في كل حادث في كل ركن من أركان الكون.

إن الغاية هي التعرف إلى الذات، ومعرفة النفس من خلال قراءة القرآن الكريم بخشوع وقلب سليم..

الغاية هي القدرة على الوصول إلى سر حكمة: "**مَن عرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَّه**".. الغاية هي أن يفلح المرء بأن يكون شاهداً وخليفة للحق سبحانه وتعالى في الأرض.. أن يجعل من القلب ينبوع رحمة، وكذلك اليد، واللسان، والعين.. أن ينشر الفضيلة، والاستقامة، والعدالة، والرحمة، والمحبة بصورة تنسجم مع النظام السائد في الكون.

والخلاصة أن يصبح الإنسانَ المكرم المستحق للجنة التي عرضها السماوات والأرض.

فهذه هي الغاية...

ولكن ماذا عن عصرنا؟

ثمة أبحاث ودراسات علمية معمقة حول الكون في أيامنا هذه، وهناك معلومات هائلة في ميادين الفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء، وعلم النبات وغيرها من الميادين تفوق بكثير ما كان في عصور سابقة.

ولكن الهدف اليوم استخدامُ هذه المعلومات الكثيرة ركيزةً للفلسفات الفاسدة والأفكار الضالة المُضلِّلة، بدلاً من استخدامها أداةً لتفكير نوراني بعقل سليم يقود إلى الحقيقة.

ونرى الشباب في مراكز التحصيل العلمي، وفي أوساط الفن، وفي محافل الفلسفة ينجرُّون إلى براثن الإلحاد والإنكار.

ونجد مَن يقول أن سبب وجود كل شيءٍ مصادفةٌ عمياء، ومنهم من يُهاجم عقيدة أن الخالق هو الله ﷻ.

وثمة منهج مُعَد لإفساد الإيمان بالآخرة، والمقصودُ منه إقامة حياة وحشية منفلتة من كل حساب أو مسؤولية. وهناك من يُروِّج للغدر، والخيانة، وأهواء النفس ورغباتها الجامحة.

ومنهم مَن يحاول سحقَ كرامة الإنسان وإسقاطه من المقام العالي الذي كُرِّم به ليهوي إلى الدركات السفلى، ويتحول إلى حيوان لا همَّ له سوى الطعام والشراب، والانغماس بالشهوات. ومنهم من يسعى ليجعل النفعية مذهباً يحيا به الناس.

إننا نجد مجموعة من الاستطلاعات والإحصاءات والمشاهدات تشير إلى أجيال محرومة من التدريس الديني والأخلاقي. تفيد هذه الدراسات- مع الأسف- أن:

هذه الأجيال في طريقها إلى أن تصبح أبناء المصادر الفاسدة المنحرفة الباطلة التي تتولى تربيتهم وتغذيتهم بالسموم، وليس أبناء آبائهم وأمهاتهم الحقيقيين، أي إن هذه الأجيال ستغدو أبناء (الإنترنت)، والتلفاز، والإعلانات، والوسائل الفاسدة، والهوس بكل جديد. إن فلذات الأكباد يتحولون إلى أطفال مشردين أرضعتهم الشوارع بملوثاتها وجراثيمها المختلفة..

لقد ضُرِبَت أقفال الغفلة والضلالة على القلوب، وأُغلِقت أبوابها لكثرة النفسانيات واتباع الأهواء..

وأما المفتاح الذي يفتح كل هذه الأقفال، ويحل هذه الأصفاد، ويعيد القلوب إلى الهداية من جديد، ويوصلها إلى الرِّقَّة والإدراك والمعرفة والفطنة فهو التفكر.



وكل إنسان يقرأ كلام الله وكتاب الكون بتفكر سيشعر بالجوهر النقي الصافي الكامن في فطرته، ويصغي السمع إلى الصوت الذي يجلجل في وجدانه، ويتأمل بإعجاب التجليات الإلهية في أنحاء هذه الدنيا، فلا يجد مناصاً من إدراك الحقيقة.

تجدون في هذا الكتاب الذي بين أيديكم:

ـ أموراً ستكون مفتاح تفكيرنا.

ـ وسرداً لأمثلة عن مظاهر العظمة والقدرة، وعن تجليات الكمال والانسجام الفريد السائد في الكون.

ـ وخلاصة عن المعجزات القرآنية التي تثبت بأن القرآن العظيم كلام خالق الكون.

ـ وبياناً لأهمية محبة سيدنا محمد ﷺ واتباعه من أجل فلاحنا وسعادتنا في الآخرة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوقِد هذا العمل الصغير المتواضع شعلةَ الإيمان والهداية في القلوب.

وأتوجه بالشكر العميق للسيد محمد علي أشملي ومصطفى عاصم كوجوك آشجي للخدمات التي قدماها في إعداد هذا الكتاب، وأسأل المولى ﷻ أن يجعلها صدقة جارية في صحيفة أعمالهما.

وما التوفيق إلا من عند الله.

عثمان نوري طوبَّاش

آذار/ مارس ٢٠١٧

إسطنبول- أُسكُدار

مدرسة التفكر

الكون
والقرآن والإنسان



إن كل شيءٍ ينحني مُقِرًّا أمام إبداع الخالق ﷻ فيقول:

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)

يقول الشاعر العثماني ضياء باشا:

سبحان من تحيَّر في صنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجِز الفحول





مدرسة التفكر

الكون والقرآن والإنسان

ثلاث عجائب

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠)

من الأمور التي فُضِّل بها الإنسان على سائر المخلوقات الأخرى إكرامه بصفات معينة مثل: العقل، والقلب، والمنطق، والبصيرة، والإدراك، والروح. وبذلك يستفيد الإنسان من ثلاث عجائب منفصلة يفسر بعضها بعضاً، ألا وهي:

١. ماهية الإنسان، ولبه، وجوهره.

٢. كتاب الكون.

٣. كلام الله المتجلي في آيات القرآن الكريم.

وقد أُعطِيَ الإنسانُ العقلَ كي يتدبر هذه الأسرار والحكم الإلهية ويتفكر فيها.

ولذلك كان أول أمر يصدر عن القرآن الكريم أن:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)

ولما نزل هذا الأمر الإلهي على النبي عليه الصلاة والسلام كان وحيداً في غار حراء يتفكر ويتأمل؛ أي إن سيدنا محمداً ﷺ الذي كان قلبه ينفطر ألماً وحزناً من ظلم الجاهلية وظلماتها كان يحمل معه بعض الزاد ويعتزل الناس في الغار، ثم يتأمل من هناك الكعبة المشرفة، ويُريح نفسه بالتفكر العميق لأيام وليالي.

وكان قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١) يشير إلى أن المهمة الأولى إنما هي التفكر، لأن التفكر وسيلة لكل شيءٍ، من إيمان وعبادة وأخلاق....

يا ابن آدم، اعلم الحكمة من الوجود.

يا ابن آدم، فكِّر في مُلكِ مَن تحيا، ونظِّم حياتك.

يا ابن آدم، عِشْ حياتك على أساس أن لها غاية ينبغي تحقيقها.



التفكر: مفتاح الإيمان

نعم، التفكر مفتاح الإيمان لأن غاية خلق الإنسان إنما هي عبادة الله سبحانه وتعالى، أي العبودية له. إلا أن العبادة لا تُقبَل إلا بإيمان سليم، ولا بد من معرفة الله ﷻ في القلب للوصول إلى ذلك الإيمان.

ومعرفة الله المنزه عن التشبه بالمخلوقات لا تتحقق إلا بتدبر القلب لكلام الله تعالى، ولتجليات العظمة الإلهية التي تزيِّن هذه الدنيا.

فلا بد من التفكر بِعقلٍ خاضع لأنوار الكتاب والسنة، وبقلب سليم مُطهَّر من الخصال السيئة، فمثل هذا التفكر هو الذي يكون مفتاح الإيمان.

وأما الآية التي تلي الأمر الإلهي "اقرأ" فإنها تذكِّر الإنسان بخَلقه:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ٢)

وثمة كثير من الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى التأمل في ذاته، منها قوله تعالى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق: ٥)

أيها الإنسان، لِمَ أتيتَ إلى هذه الدنيا وترحل عنها؟ وإلى أين المسير؟

أيها الإنسان، تأمل الآياتِ الناطقة والصامتة في الكون، وفي نفسك، وفي القرآن الكريم، ثم تفكر في كل تفصيل من تفصيلاتها واقرأها بتدبر!

مَن الذي خلق الإنسان من ماء مهين؟ مَن الذي صوَّره بأحسن صورة؟

﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ (الإنفطار:٦-٨)

ما أشد غفلة ذاك الإنسان الذي يشعر بضرورة تقديم الشكر لمن يعطيه كأساً من الماء، ثم ينأى بجانبه ويعرض عن التفكر في خالقه وأداء الشكر لخلقه إياه!

يشير الشيخ البورصوي إلى عظمة الخالق ﷻ، وجهالة الإنسان وغفلته بعبارات تحمل معانٍ جديرة بالتوقف عندها، إذ يقول:

"ما أجل شأن الله الذي يُسمِع الأذن التي ليست إلا قطعة شبيهة بعظم، والذي يُبصر العين التي ليست إلا قطعة من شحم، والذي يُنطِق اللسان الذي ليس إلا قطعة من لحم، والذي جعل في الحيوانات اللحوم والشحوم، وزيَّن النباتات بالثمار والبذور، ووجَه الأرض بالأشجار والأنهار، والسماءَ بالكواكب والنجوم، والذي جعل الليل للإنسان سباتاً، والذي أكرمَ الإنسان في النهار بنعَمٍ لا تُعد ولا تُحصى.

ومع أنك لا تؤدي العبودية له كما يليق به، فإنه يرفع من قدرك، ويسبغ عليك بنعمه المادية والمعنوية، الظاهرة منها والباطنة، وكأنه ليس لديه عبد غيرك.

إن كافة العلوم ما هي إلا اكتشاف للقواعد والقوانين والمبادئ التي أودعها الحق ﷻ في الكون. وأما العلم الحقيقي فهو الذي لا يبقى سطحياً وإنما يمر عبر مراحل الإدراك القلبي، فيستطيع التعرف إلى القدرة المتسامية التي سنَّت قواعد العلم، ثم يطَّلع على الأسرار والحكم الإلهية.



وأما أنت فإنك في غفلة عن العبودية له، وكأن لديك ملجأً أو سنداً أو ملاذاً غيره". (انظر: إسماعيل حقي الإسطنبولي: روح البيان معاني وتفسير القرآن: ج ١، ص، ٩٤ – ٩٥، منشورات الأرقم)

ويشير الله تبارك وتعالى في الآيات التالية من سورة العلق إلى الفضائل والمكرمات التي أنعم بها على الإنسان، إذ يقول:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٣-٥)

لقد خص الله ﷻ الإنسان وحده من بين مخلوقاته باليد التي تستطيع أن تمسك بالقلم والقيام بأعمال دقيقة جميلة، وبالدماغ الذي يستطيع استخدام تلك اليد والتحكم بها على خير وجه، والذي يستطيع أيضاً تطوير وسائل العلم والفكر من القلم والورق وغيرهما.

فهو سبحانه وتعالى القائل في كتابه العزيز:

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٤)

إن ما يدعو للأسف اليوم أن النفوس التي غلبتها المادية لا تذهب في مفهوم العلم أبعد من اكتشاف القوانين المادية والفيزيائية التي أودعها الله في الكون.

فتتجاهل مرحلة "معرفة الله" التي تعني تعرف القلب إلى الله خالق تلك القوانين؛ أي إنها تغض الطرف عن جوهر الأمر كله.

أسرار وحكم

إن كلمة "البيان" تعني إدراك الإنسان لكلام الحق ﷻ، والقدرة على التعبير عنه، والتحدث به، والتدبر فيه. وتعليم البيان يعني جعل الإنسان مستعداً وقادراً على القيام بكل ما ذكرناه من الناحية المادية والمعنوية.

وقد جعلَ الله تعالى نعمة الكلام الغنية بكلمات وعبارات لا حصر لها مخصوصة أيضاً بالإنسان. والخطوة الأولى للكلام تحويلُ الفكر الكلمةَ إلى رموز، وهذه الرموز تُستدعى من أعماق الذاكرة بآلية لم نستطع فهم سرها إلى الآن، ثم يصطف بعضها وراء بعضه في جملة ما، فتحمل الجملة الكلمات والمعاني والمشاعر.

إن الهواء الخارج من الرئتين الذي انتهى عمله في الجسم يتحول إلى كلمات في مخارجه مثل اللسان، والأسنان، والشفتين، وذلك عن طريق الحبال الصوتية. وأثناء عملية الكلام تعمل أربع وأربعون عضلة من عضلات وجهنا، وتصبح مع تعابير الوجه عناصر مساعدة للكلمات التي تبين الشيء المراد. ثم يحمل الهواء المنتشر في الجو تلك الكلمات إلى أغشية آذان المخاطَبين بها. ولا يمكن أن ينتقل الصوت في محيط لا هواء فيه. وتتوضح معاني الجمل والكلمات، وتُفهَم الأفكار والمشاعر التي تحتويها بعد عملية معقدة وعظيمة داخل أنظمة جسم المستمع والتي لا

> إن الإنسان ذا القلب البصير يدرك بأن العالم بأسره تجليات إلهية، ويشاهد صنع الله ﷻ في كل شيءٍ.



تقل أهمية عن تلك العملية في جسم المتحدث. والخلاصة أن فهم ما يُقال يُعدُّ حلقةً مهمة في معجزة "البيان" كأهمية التكلم. (انظر: كاندمير وآخرين: التفسير، ٢، ١٨٣١)

لا شك أن "البيان" لا يعني الكلامَ بشكله البسيط، فالله سبحانه وتعالى أوضحَ في بداية سورة الرحمن تعليمَ الإنسان البيان في قوله:

﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤)

أي إن المراد الإلهي من "**البيان**" إنما هو قدرة الإنسان على فهم كلام الله تعالى، والإشارات الإلهية في الكون.

لقد علَّم الله سبحانه وتعالى أبا البشر سيدنا آدم عليه السلام الأسماءَ كلها، أما سائر المخلوقات الأخرى فإنها تتحرك وتتصرف في هذه الدنيا وفقاً لغرائزها الفطرية، ولا تستطيع الخروج عن الإطار المرسوم لها. فالكلب مثلاً لا يدرك ولا يعرف ماهية نفسه، ولا وجوده، ولا اسمه، ولا أي شيءٍ عن هيكله وجسمه، وليس باستطاعته أيضاً التفكير بالحِكَم الموجودة في كيانه وفي الكون. وكذلك الحيوانات الأخرى كالقطط وغيرها، فهي لا تعرف أسماء الجبال، ولا فائدة التوازن البيئي، لأن الخالق عز وجل لم يعلِّم البيان إلا للإنسان من بين المخلوقات. ولا يقتصر البيان على معرفة الأسباب المادية والتعريف بها. إذ إن المؤمن عندما يسمو ويرتقي في الروحانيات، تنكشف الآفاق أمام بصيرته، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:

إن كل ذرة في الكون تخبر الإنسانَ صاحبَ البصيرة عن قدرة الله عز وجل، وحتى النغمات والتغريدات التي تصدر عن قلوب الطيور الصغيرة هي تسبيح لله سبحانه وتعالى.

"والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله" (ابن ماجه: الزهد، ١٩؛ انظر أيضاً: مسلم: الفضائل، ١٣٤)

فالبيان الذي علَّمه الله تعالى يختلف باختلاف مستوى كل قلب؛ إذ يتجلى البيان- أي القدرة على فهم آيات الله والأسرار والحِكم في الكون- في أحوال رسول الله عليه الصلاة والسلام، وفي الأولياء والأصفياء على حسب مستوى قلب كل واحد منهم، وأما لدى العوام فإنه يتجلى على قدر الفهم، والسماع، والتعبير الظاهري.

فالجميع يجلس أمام المصحف ذاته، ويشاهد الآيات ذاتها، ويُخاطَب بالسطور ذاتها، لكن الفائدة التي تُجنى من البيانات الإلهية السائدة في الكون والقرآن تختلف باختلاف القلوب.

وهنا يجدر القول:

إنها لوضاعة وسفالة ما بعدها من سفالة أن يسعى الإنسان لحجب عظمة الله عن أعين الناس بالإقدام على استخدام النعم الجليلة التي أكرمَه الله ﷻ بها وخصَّه بها دون سائر المخلوقات مثل نعمة العقل، والإدراك، والبيان.

فأهل الضلال والانحراف اليوم الذين يرفضون حقيقة الخَلق ويؤمنون بنظرية "التطور" والمصادفة يرون الإنسان كائناً حياً من نوع الحيوانات ويتمايز عنها بذكائه الخارق للعادة. وينسبون هذا الأمر إلى الطبيعة، وليس

إن القلوب التي تبصر وتشعر لا ترى في هذا الكون إلا تجليات القدرة والعظمة الإلهية. ووا أسفاه على الذين لا يفهمون في هذا العالَم الأزهارَ، والسنابلَ، والبلابلَ بلسان حالهم



إلى الخالق، مظهرين بذلك مدى حمقهم ووقاحتهم. وعندما توجَّه أسئلة ناقدة لنظرية التطور هذه، مثل:

"لمَ لا تتكون كائنات حية جديدة في وقتنا هذا؟"، فإنهم يسارعون إلى إلقاء بطلانهم على "الزمن". ويقولون: "بإن هذه الكائنات قد تطورت ببطء عبر مئات الآلاف من السنين". كان أصحاب هذا التصور الباطل موجودين حتى في العصر الجاهلي، وكانوا يقولون، كما ينقل لنا القرآن الكريم: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾** (الجاثية: ٢٤)

أسئلة موجهة إلى الداروينيين

إذا كان هؤلاء يدعون بأن الإنسان إنما ظهر نتيجة للتطور والارتقاء، فدعونا نسألهم: إن هناك اليوم آلاف الأنواع من القردة، ابتداءً من ذات الأحجام الصغيرة وصولاً إلى أكبرها مثل الغوريلا، وهذا النوع يعد أكثر الأنواع شبهاً بالإنسان. فليأتوا بأقرب تلك القردة شبهاً بالإنسان، وليلقحوه بالهرمونات والجينات الإنسانية من خلال أحدث الوسائل الطبية التي توصل إليها العلم وطورها حتى يومنا هذا، ليحولوا القرد إلى إنسان إن استطاعوا! هل هذا ممكن؟

أو يلقحوا إنساناً بهرمون القردة، وليحولوه إلى قرد!

كل الأسف على الغافل عن تجليات اسمَي الله سبحانه وتعالى "البارئ المصور"، والقلوب البليدة التي لا تشعر بشيءٍ من لسان حال الرياح، والأنهار، والجبال الصامتة.

الكل يعلم بأن هذا الأمر مستحيل! وما هذه النظريات إلا نفايات فكرية جاءت بها الفلسفة السفسطائية!

ولكن- مع الأسف- هناك اليوم الملايين من الناس الذين يسيرون بحماقة وغفلة كبيرة وراء ما يسمى بنظرية التطور والارتقاء، وليس ذلك إلا لعداوتهم للدين. وكأنهم يقولون كما قال الإنسان الجاهلي: "نتبع ما وجدنا عليه آباءنا"، فيتعصبون لنظريتهم كتعصب الجاهلية، ويسيرون خلفها وإن كانت باطلة.

إنهم يستميتون في إنكارهم خلق الله تعالى لآلاف الكائنات الموجودة منذ مئات الآلاف من السنين، ويربطون هذا الخلق العظيم الدال على الإبداع بالصدفة وأسباب غير منطقية. فيلفقون تصورات من خلال اللجوء إلى الظن والتخمين، والتصاوير والرسومات المزيفة، وقوة الخيال، ثم يوهمون الجهلة من الناس بأنهم إنما اعتمدوا في الدراسات والنتائج التي توصلوا إليها على العلم الطبيعي الحقيقي.

يفعلون كل ذلك، بينما يعجزون عن الإجابة عن هذه الأسئلة:

إذا كان التطور هو الأصل في الكائنات، فقد اكتُشِفَ من خلال المستحاثَّات بأن هناك كائنات حية حافظت على شكلها وطبيعتها منذ آلاف السنين وإلى الآن دون أدنى تغير، فلمَ لم تتغير هذه الكائنات ولم ترتقِ؟

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

"من كان همه ما يدخل جوفه، كانت قيمته ما يخرج منه".



وما دام أن التطور هو السير نحو الكمال، والتغير نحو أنسب الأحوال؛ فلمَ يظهر هذا التنوع الكبير في الكائنات الحية؟ ولماذا نجد في الظروف ذاتها هذا التنوع والاختلاف في الأصناف التي تبلغ المليارات، وذلك من الكائنات الزاحفة، والطائرة، وذوات الأرجل، والفقاريات، والرخويات...إلخ؟

وينبغي بناءً على هذه النظرية أن يكون كل كائن ناقصاً "نصف متطور"، "أي لم يكتمل بعد ويتابع تطوره".

ولكن إذا ما أجرينا دراسة تدقيقية على تكوين أي كائن حي وحركته، سنجد أنه في غاية الدقة والكمال، ولن نعثر فيه على نقصان، أو تطور، أو حتى عشوائية. ولما كان هناك استحالة في إثبات هذا التطور البطيء، فإن أتباع هذه النظرية يلجؤون إلى أفكار ضالة ومغالطات أخرى، مثل الادعاء بنظرية الطفرة أو المصادفة؛ أي إن الكائنات تتشكل بالطفرة المفاجئة وعن طريق المصادفة. ولكن هذه الدعوى بدورها هي الأخرى غير قابلة للإثبات، لأنه لا يمكن إثبات خرافة وأسطورة لا أساس لها.

فالله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً يقول له: "كُن" فيكون!.

وإذا كان أي نظام تصادفي من عمل الإنسان لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة سليمة، وذات نفع وفائدة ومغزى؛ فكيف نصدِّق احتمال حصول المليارات من المصادفات المتتالية والصائبة في الطبيعة؟

يقول الإمام علي كرم الله وجهه:
"قيمة كل امرئ مما يطلبه".

إن السبب الوحيد الذي يحمل الإنسان على تصديق مثل هذه الأوهام والسفسطة هو إنكار الخالق. والإنكار عقيدة فاسدة بعيدة عن الحقيقة. فالقلب المؤمن يؤمن بوجود الخالق، ويستعمل مفتاح التفكر في خدمة إيمانه. وأما المنكر فإنه يضل عن الحقيقة، وينظر إلى كل شيءٍ بعين الوهم والشك والريبة لكي يدعم عقيدته الإنكارية.

وكأن كل أوهام نظرية التطور والارتقاء في سبيل إنكار الفاعل المطلق، وكأنها تدعي بأن كل كائن حي، بل وحتى كل خلية تمتلك ذكاءاً خارقاً، ومجهزة بقدرة وملكة تحوليّة وتكيفيّة هائلة.

لقد خلق الله ﷻ الإنسانَ وجعل فيه بعض الصفات البيولوجية والفيزيولوجية الشبيهة بالحيوانات، ولهذا التشابه حِكَم عظيمة منها:

١. أُلهِمَت نفسُ الإنسان الفجورَ والتقوى معاً كما وردَ في القرآن الكريم. فالإنسان مزود بميزتين متضادتين وهما: احتمال انحداره إلى أسفل سافلين، واحتمال ارتقائه إلى أعلى عليين. لهذا ظهرَ في البشر خلال العصور كثير من الأنبياء، والصديقين، والأولياء والصالحين، كما ظهر في البشر أيضاً كثير من الأشرار، والمجرمين، والمنحرفين، والضالين، والمتوحشين، والطغاة. فكل ذلك يُعد عِبراً للإنسان، لأن قلوب الناس التي لم تخضع لتربية معنوية، ولم تبلغ طمأنينتها وسلامها

> ينبغي للإنسان أولاً أن يتقرب إلى الله ويدرك أنه لا شيء أمام ربه، وبعد إدراك ذاته وقيمته تبدأ المعرفة، فتنكشف أمام القلب حجبُ الأسرار والحكم واحداً بعد الآخر.



وسكينتها تشبه الغابة التي تحوي كثيراً من الحيوانات. وكأن في قلب كل واحد تختبئ شخصية حيوان من الحيوانات على حسب طباعهم؛ فمنهم من يكون مخادعاً ماكراً مثل الثعلب، ومنهم من يكون مفترساً مثل الضبع، ومنهم من يكون حريصاً وجامعاً للمال مثل النمل، ومنهم من يكون ساماً مثل الثعبان، ومنهم من يداعب ويعض، ومنهم من يمتص الدم مثل العلق، ومنهم من يبتسم في الوجه ويطعن من الخلف، فكل واحدة من هذه الصفات طبائع وشخصيات موجودة في الحيوانات.

٢. إن إحدى الحكم من مشابهة الإنسان في الظاهر لسائر المخلوقات تكمن في تكليفه بمهمة خلافة الله تعالى في الأرض. فالملائكة وقفت في البدء متحيرة ومندهشة من إسناد الله تبارك وتعالى لخلافته إلى كائن خلقَه من تراب، فهو يشبه من حيث الظاهر سائر المخلوقات الأخرى. وأما إبليس فإنه لم يستطع تقبل الأمر أبداً.

لقد جعل الله للإنسان الذي يُعد أشرف المخلوقات صفاتاً مشتركة مع الكائنات السفلية، ولكنه ﷻ زوده بصفات وأمور تمكنه من الارتقاء إلى مستوى الكائنات السامية، وحتى تجاوزها. إن المنادين بنظرية التطور والارتقاء وأمثالهم من المنكرين لم يستطيعوا - مثل إبليس - تمييز الإنسان من الحيوان، فهم محرومون من الاعتراف بالطاقة المعنوية الكامنة في ذواتهم.

العارفون يحيون الحياة وهم يشعرون بها، والغافلون يحيونها كأنهم أموات. لكن أساس الأمر القدرةُ على العيش حتى بعد الموت، أي ترك أثر طيب بعد الرحيل. يقول مولانا جلال الدين الرومي: "كن قولاً طيباً، فالإنسان ليس إلا كلمات جميلة طيبة تُقال بحقه".

٣. من الأمور التي تمنع الإنسان عن الغرور والكبر مشابهتُهُ لسائر المخلوقات الأخرى من ناحية طريقة مجيئه إلى الدنيا، وطعامه، وتناسله، وتفسخه بعد الموت وتحوله إلى تراب. والجانب الترابي أو الطيني للإنسان يُسهِّل عليه التواضع والتوبة والندم على الأخطاء.

إن الذين يرفضون خلافة الإنسان للحق سبحانه وتعالى ويؤمنون بأوهام نظرية التطور والارتقاء يُظهِرُون الإنسانَ على أنه الكائن الحي الذي يمتلك أعلى درجات الذكاء والرقي، ثم يميلون إلى الكبر والغرور. فهؤلاء لا ينسبون الكمال الذي يبدو في ذواتهم إلى الخالق ﷻ، وإنما يعدونه- بكل وقاحة- نتاجَ ذكائهم.

٤. جُعِلَت المخلوقات في أمر الإنسان وخدمته. إذ تُجرى اليوم تجارب واختبارات طبية على المخلوقات التي تشابه الإنسان بتفاعلات جسمها نظراً لبنيتها الجينية المشابهة، وبذلك يمكن إيجاد أنواع كثيرة من الأدوية العلاجية دون تعريض الإنسان للأخطاء التي تنجم عن التجارب والاختبارات الطبية.

هناك حجاب "ظاهر" في الوجود امتحانًا من الحق سبحانه وتعالى، ويُعد التشبث بالظاهر وعدم القدرة على النفوذ إلى الباطن أكبر درجات عدم الإدراك. ومع ذلك ثمة في الظاهر آثار بادية للعيان تدل على الصنعة

خلقَ الله تعالى العلومَ كلها وسيلةً لمعرفته.فكلُّ علم للقلوب الحيَّة وسيلةٌ للانتقال من السبب إلى المُسبِّب، ومن الأثر إلى المؤثِّر، ومن الإبداع إلى المُبدِع.



البديعة والعظيمة. والقول بأن الكون الذي يُعد مظهراً لعظيم الصنعة قد تشكل من تلقاء ذاته وبمحض الصدفة، يعدُّ تركاً للخالق وعبادة للمخلوق.

لذلك فإن فلسفة الماديين قد صارت سبباً لانتشار الإلحاد في الدنيا بأسرها.

وأدى هذا المفهوم الموبوء إلى ظهور نظريات وأفكار منحرفة كثيرة:

- فقد ولَدت الداروينية في علم البيولوجيا، وعمل هذا الفكر المنحرف الضال على إنكار الخلق بنظرية التطور والارتقاء.
- وظهرت الفرويدية في علم النفس، وهذه النظرية عرَّفَت الإنسان على أنه كائن محكوم بالمشاعر الجسمية السفلية وتواق إليها.
- وبرزت الرأسمالية والشيوعية في الاقتصاد والسياسة، وهذان الفكران جعلا الإنسان مجرد كائن حي لا هم له سوى السعي خلف تحقيق الكسب المادي، أي جعل الناس نسخاً عن قارون.

فصارت هذه المفاهيم التي سيطرت على الحضارة الغربية خلال القرنين الأخيرين سبباً لهلاك الملايين من الناس هناك.

وأما الفلسفة الإنكارية التي سميت في عصرنا الحالي ب "العلمانية" فقد أبعدت العلمَ عن طبيعته الأساسية والتي تتمثل بكونها وسيلة، فجعلته غاية بحد ذاته، وصارت تعبد العلوم الطبيعية. إن هذا المفهوم والفكر

إن الجهل ليس عدم معرفة العلوم الدنيوية، وإنما الجهل الحقيقي هو عدم معرفة الحق سبحانه وتعالى؛ هو عدم معرفة الله تعالى صاحب القدرة المتعالية الذي تفضل علينا بالوجود، وأسبغ علينا النعم التي نتقلب فيها.

الباطل الذي شكلتْ أرضيتَه الأساسية المظالمُ التي ارتكبتها النصرانية المحرَّفة بحق رجال العلم في العصور الوسطى، يرى بأن الأديان أمورٌ ابتدعها الناس، وبالتالي يدعي بأن الحقيقة الوحيدة التي سوف تدل الإنسانية على الطريق إنما هي العلم، ووسيلته العقل.

لكن العقل في واقع الأمر لا يمكن أن يأتي بالنفع والفائدة للإنسانية إلا في إطار وحي القرآن والسنة، ذلك أن العقل يُعد وسيلة مثل سكين قاطع ذي حدين، فيمكن استخدامه لتحقيق الضرر والنفع معاً. حيث أن السكين الحاد يمكن أن يكون وسيلة لاستعادة صحة الإنسان وتحقيق الفائدة له إذا ما استُخدِم في إجراء عملية جراحية طبية، ويمكن أن يكون وسيلةً لإلحاق الضرر والأذى بالإنسان إذا ما استُخدِمَ في الجرائم.

وكذلك الطاقة النووية، فإنها تحقق فوائد كثيرة للإنسانية، فمثلاً تؤمن الإضاءة التي تخلص البشرية من الظلمات، وتؤمن الحرارة التي تحمي من البرودة وغير ذلك. ولكنها في الوقت ذاته يمكن أن تلحق أشد الضرر بالبشر إذا ما صنعت منها أسلحة وقنابل، إذ إنها تتحول إلى وحش يسحق كافة الكائنات الحية على وجه الأرض، وأما من ينجو من الهلاك فإنه سيعاني ونسله القادم من التشوهات والعاهات الخَلقية المروعة.

إن المؤمنين من أهل التقوى يشاهدون العالم بعين البصيرة من غير حجب، ويقرؤون صفحات الكون المليئة بالحكم بكل اعتبار. وأما المساكين الذين يقضون أعمارهم وهم مكبَّلون بأهواء النفس وغوائلها فإنهم لا يستطيعون رؤية أي حكمة في كتاب الكون، لأنهم قد أغلقوا عيونهم بأصابع الغفلة.



أهذه هي الحضارة؟

إن مختلف أنواع القنابل بما فيها الذرية، والصواريخ، والأسلحة الكيماوية والبيولوجية التي قتلت وتقتل مئات الآلاف بل الملايين من البشر في القرن الأخير ما اخترعها إلا "العقل والعلم".

وكذلك فإن العقل والعلم قد أنتجا في رحلة البحث عن الأدوية العلاجية للمرضى الكثيرَ من السموم المخدرة التي ألحقت أشد الأضرار بالأجيال.

ذات يوم سألَنا شيخُنا نور الدين طوبجو رحمه الله:

"يا أولادي، هل الإنسان الذي عاش في الماضي كان أكثر طمأنينة وسلاماً وسعادة، أم الإنسان الذي يعيش في وقتنا الحاضر؟".فقلنا: "لا شك أن الإنسان الذي يعيش في الحاضر أكثر سعادة يا أستاذ!". ولما قال لنا: "لماذا؟" عدَّدنا له الأسباب، فقلنا: "إن أكثر الناس اليوم يقطعون المسافة التي كانت تستغرق في الماضي ثلاثة أشهر بثلاث ساعات. وفي الماضي كانت المرأة تغسل الثياب في طست، وكان ذلك يستغرق نصف النهار، أما اليوم فإنها تغسل الثياب في الغسَّالة بسهولة وسرعة..."، فاعترض الأستاذ على كلامنا هذا، وأشار إلى أن الإنسان الماضي كان أكثر سعادة وبيَّن الأسباب، إذ قال: "إن تطور الآلة قد أفسد روح الإنسان. ففي عام ١٩٤٤م ألقت أمريكا قنبلتين ذريتين، ودمرت بهما مدينتين كبيرتين وسوَّتهما بالأرض، وتفحم كل شيءٍ. بينما لم يكن من حق أحد تدمير

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:
"يستخرج العاقل الحِكَم حتى من الحكايات، لكن الغافل لو قرأتَ عليه مئات من الحِكَم، فلن يراها أكثر من حكاية".

الحجر والشجر، ولم يكن من حق أحد قتل النساء، والأطفال، والشيوخ، وتدمير الجمادات والنباتات... أليست هذه وحشية وهمجية؟ أهذه هي الإنسانية، أهذه هي الحضارة؟ أهذا هو التطور والتقدم؟ لقد سمَّم التطور الصناعي روحَ الإنسان. إن الإنسان القديم لم يكن ظالماً إلى هذا الحد. وعلى الرغم من الصعوبات والمشقات التي كان يلاقيها في حياته إلا أنه كان أكثر سعادة من الإنسان الحالي، لأنه لم يكن في ذلك الزمن براثن المادية التي أصابت روح الإنسان بالشلل..."

واليوم يتم تهجير الملايين من أبناء سوريا من بلادهم وبيوتهم، وأما من يتشبث منهم بأرضه ويبقى في بيته ووطنه تُمطَر على رؤوسهم الآلاف من القنابل والصواريخ التي تحرق البشر، والشجر، والحجر، وكل ذلك بسبب جشع الظالمين وطمعهم بالنفط والسُّلطة.

"فهذه هي الحضارة المتوحشة المكشرة عن أنيابها!"

يعتقد الناس في عصرنا الحاضر أن الحضارة إنما هي الاختراعات والمنتجات التي يتم الحصول عليها عن طريق التقدم الصناعي، ثم يطلبون المدد والعون من الآلة التي هي ليست إلا قطعة من حديد. وتجعل النفوس التي لم تتلقَ تربية معنوية ولجأت إلى قوة الماديات سعادتَها وطمأنينتها وراحتها فوق كل شيءٍ، فتنزلق إلى الأنانية وحب الذات، وتصبح مضرب مثل للشقاء الذي وصفته الآية القرآنية الآتية:

إن أحد الجوانب العظيمة لصنع الله الذي يأخذ بالألباب هو روعة الخلق التي تتجلى في أصغر العوالم المتمثلة في الذرة والنوى، وفي أكبر العوالم المتمثلة بالكون وما يحتويه من الكواكب والنجوم.



﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة: ٢-٣)

وثمة كثير من الذين كانت أبحاثهم قائمة على العقل والعلم، إلا أنهم لم يتخلوا عن الدين والعقيدة. فالنتيجة التي توصل إليها الفيلسوف وعالم الرياضيات ديكارت (١٥٩٤ - ١٦٥٠م) الذي يُعد أبا العقلانية والفلسفة الحديثة من خلال إعمال العقل والعملية المنطقية التي أجراها انطلاقاً من "دليل الوجود" تشير إلى ضرورة القبول بأن الوحي الإلهي هو المصدر الأصلي للحقيقة. ويقول ديكارت في كتابه (أفكار ميتافيزيقية):

"إن الله كائن كامل تام، لا يضِل ولا يُضِل، فعلمه أيضاً صحيح كامل بلا نقصان. ولأنه كامل فإنه لا يَضِل، ولأنه لا يَضِل فعلمه صحيح. وهو الذي لا يُضِل، فكل علم يمنحه صحيح. إن قال إني خلقت الكون، فقد خلقه. لذلك فإن مصدر العلم القطعي إنما هو علم الله الصحيح".

ويؤيِّد باسكال هذا الرأي في قوله: "ثمة صوت يأتي من أعماقنا يُنبئنا بأننا خالدون، إنه صوت إرشاد الله".

إلا أن الفلاسفة الذين توصلوا إلى فكرة أن القبول بوجود الله ضرورة عقلية من أمثال ديكارت، وسبينوزا، وباسكال، وكانْط وغيرهم لم يستطيعوا تجلية أفكارهم هذه والوصول بها إلى درجة الكمال لوجود دين باطل محرَّف في المحيط الذي يعيشون فيه، أي وجودهم في ظروف وبيئة سلبية، وعدم قدرتهم على التعرف بالشكل الكافي إلى دين الإسلام

يوجد في كل ذرة نواةٌ وكثير من الإلكترونات التي تدور حولها بسرعة هائلة. وإذا ما جرى تكبير هذا العالَم الصغير فإننا سوف نجد أمامنا نظاماً كالنظام الشمسي حيث تدور كثير من الكواكب حول الشمس. فروعة الخلق وعظمته موجودة في كل شيءٍ؛ في الكون الصغير، وفي الكون الكبير.

الدين الحق. إذ لم تصلنا إلى اليوم أي وثيقة تدل على تحقيق هذا النوع من الفلاسفة الذين أظهروا قدراً من الاحترام للدين، الشرطَ الأول والأساسي لنيل سعادة الدارين؛ هذا الشرط الذي يُعرَف بـ"عقيدة التوحيد". ويشبِّه الأديب التركي نجيب فاضل هؤلاء بحال الذين يضيعون آخر الفرص المتاحة لهم، فيقول: "أولئك الذين دنوا من مرفأ الإسلام، لكن فاتتهم السفينة الأخيرة لأنهم لم يخطُ الخطوة الأخيرة". (نجيب فاضل كساكورك، الفكر الغربي والتصوف الإسلامي، ص، ٥١، منشورات بيوك دوغو، إسطنبول، ٢٠١٢)

فالعقل والعلم ليسا بغاية في حد ذاتهما، وإنما هما وسيلة. والنفس التي أبعدت العقل عن الوحي ومضمون العقيدة الصحيحة السليمة قد استغلت العلم والتطور التقني واستخدمتهما في خدمة أعمالها الدنيئة.

فالله ﷻ لم يهب نعمة العقل لاستخدامها في ارتكاب الجرائم، وإنما وهبها من أجل استعمالها في التفكر بالحقائق الإلهية، وفي خدمة عباد الله.

ولم يكرم الله ﷻ الإنسانَ بنعمة الكلام من أجل الوقوع في الذنوب، والاتصاف بالصفات السيئة مثل الكذب، والسخرية، والاستهزاء، والغيبة؛ وإنما أكرمه بنعمة الكلام ليقرأ ويتحدث بالصدق والكلمة الطيبة، وليتواصى مع إخوته بالحق والخير والصبر والرحمة، وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. إن أعظم الأسئلة في امتحان مدرسة الدنيا هو السؤال الذي يأتي في مسألة "الإيمان بالغيب".

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

ما دمتَ ترى حركة حجر الرحى، فأمعن النظر في ماء الجدول الذي يبث الحركة فيه! وإذا رأيت الغبار يتصاعد إلى السماء فانظر إلى الرياح التي تذروه! أبصِر الفاعلَ المطلق!



الإيمان بالغيب

في لحظة الموت حين يتراءى عالم الغيب أمام الأعين وتُسدل الستائر، ينتهي الامتحان، ولا يقبل بعده إيمان ولا توبة أبداً.

فالمراد من الإنسان ليكون أهلاً لنيل نعيم الجنة هو إيمان قلبه بالغيب، وليس الإقرار بما تراه العين المجردة.

فالصفة الأصلية والحقيقة هي الإيمان بالحقائق عندما تكون وراء حجب الغيب في الحياة، والاستمرار بذلك الاعتقاد طوال العمر، ولفظ آخر الأنفاس ومفارقة الحياة بإيمان. ويعبر نجيب فاضل عن لحظة الموت الفياضة بالسعادة بقوله:

"المهارة هي القدرة على القول لعزرائيل: (أهلاً بك) في تلك اللحظة التي تُرفع فيها الحجب".

إلا أن هذا الامتحان ليس صعباً إن خاضه الإنسان بمفتاح التفكر.

والله تعالى "غائب لشدة ظهوره"، وهو المتعالي "المُستعلي على كل شيء" والباطن "المخفي الغائب عن أبصار الخلق". لكن كل الأشياء التي خلقها ربنا ﷻ تجلياتٌ لصفاته، وكل شيءٍ يدل عليه.

فالانسجام والتناسق المتكامل الذي يسود في الكون يدل على بعض أسمائه الحسنى مثل العليم، والحكيم، والعزيز، والقيوم، والمدبر.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"يا أيها المغفل، هل المعقول أن يكون لهذه القصور والصروح والمنازل بانٍ، أم المعقول أن ليس لها بانٍ!"

وهذا النظام المحكم العظيم الذي يهيمن على البيئة التي تُشبع الملايين من الكائنات من أصغرها وأدقها حجماً إلى أكبرها، يحملنا على مشاهدة تجليات أسماء الله "الرزاق، والمؤمن، والكريم، والجواد، والنافع".

وإننا نشاهد أنواعاً وأجناساً كثيرة من المخلوقات، ولكن كل كائن يُعد في الحقيقة نسخةً لا مثيل لها، إذ ليس هناك شخصان يتطابقان مع بعضهما بخصائصهما وطبيعة حياتهما. وحتى التوأمان اللذان نراهما متشابهين إلى حد التطابق لهما بصمات مختلفة، وشبكية عين مختلفة، وقدَر مختلف...

إن الصنعة الدقيقة والبديعة ليست مخصوصة بالإنسان فقط، وإنما تشمل سائر الكائنات الأخرى، فمثلاً لا نجد في الكون شجرتي تفاح متطابقتين، ولا شجرتي برتقال متماثلتين في كل شيءٍ، فلكل واحدة منها طبيعة وهيكل مختلف عن الأخرى، ولكل منها عمرها المحدد الخاص بها.

وكل طفل يرث من أجداده أو أقربائه شيئاً من الخصائص الخَلقية. والحيوانات المنوية التي ينتجها الذَّكر تُخلَق في جسمه بأعداد هائلة تبلغ المليارات خلال مسيرة حياته، وعندما يتلاقح الحيوان المنوي مع البويضة وتتشكل ٤٦ صبغياً من الصبغيات، ترد من جديد الآلاف من الاحتمالات!

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"يا بني، هل المعقول أن يكون للكتابة التي تراها كاتبٌ، أم أن المعقول أن تكون هذه النقوش التي تزين الجدران والكتابات التي تملأ سطور الصفحات من غير كاتب!"



وحتى عدد الأولاد الذين يُرزق بهم الإنسان ما هو إلا من تقدير الله تعالى، إذ يخلقهم من بين المليارات من الاحتمالات. وأما الأم والأب فلا دور لهم إلا مشاهدة هذا الإكرام والإحسان الإلهي والإعجاب به.

فيا أيها الإنسان!

لقد خُلقتَ من خلية واحدة من بين مليارات الخلايا، أما يُعد هذا الأمر سبباً لتفكير دقيق عميق... وكم من مشاعر الشكر والامتنان التي ينبغي أن نكنها للحق سبحانه وتعالى لخلقه إيانا من بين المليارات من الحيوانات المنوية القابلة لأن تكون كل واحدة منها إنساناً؟

إن الأجرام السماوية الهائلة والمجرات التي لا نهاية لها تفتح أمامنا نوافذ لإدراك أسماء الله تعالى "العظيم، والكبير، والخالق، والعزيز، والقدير، والمقتدر".

والكائنات الحية والنباتات مختلفة الأصناف والألوان هي تجليات لأسماء الله "البارئ المصور".

وهذا النظام القائم على أساس ربط المخلوقات التي لا حصر لها بعضها مع بعض يُعدُّ وحده مظهراً مختلفاً من مظاهر عظمة الخالق.

فالغزال يتغذى على النبات، والسبع يأكل الغزال، وما يفضل من جيفة الغزال تقتات عليها مخلوقات أخرى مثل الضبع والنسر وغيرهما،

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"أيها الإنسان، هل تستطيع أن ترينا شيئاً في هذا العالم قد وُجد من تلقاء ذاته؟ انزع نبتةً غُرِسَت ونمت بنفسها من الأرض وانظر هل انتهت بنفسها!"

وكذلك الذباب والحشرات. ثم تعود فضلات جميع الحيوانات وجيفها إلى التراب، وتصبح غذاءً للنبات، وبذلك تعود الدورة إلى بدايتها.

والدجاج يأكل العقرب، والإنسان يأكل الدجاج، وذلك ضمن نظام بيئي متكامل ومحكم بسلسلة غذائية دقيقة، فإذا اختل التوازن فإن كل شيءٍ ينهار وينقلب رأساً على عقب.

فإذا ما أمعنا النظر إلى هذا التكامل، لا نجد إلا مظاهر العظمة والقدرة. والحكمة هي الجانب السري للحوادث والوقائع والأشياء، وفي الجانب الآخر نجد القول والفعل الصائب. وكل حادث في الكون يبين بأنه ذو غاية ومغزى معين، وليس أمراً عبثياً وباطلاً.

إن لأعيننا مسافة معينة للرؤية، فهي ترى بشكل واضح إلى نقطة معينة، وبعد هذه النقطة تبصر بشكل ضبابي، وبعدها لا تبصر أبداً. وإننا لا نستطيع رؤية عوالم الميكروبات المجهرية، ولا المسافات البعيدة من غير استخدام الأجهزة. وكذلك فإن مجال رؤية عيوننا محدود من حيث طول الموجات التي يمكنها رؤيتها، فنحن نعجز عن رؤية الأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية.

وكذلك فإن حاسة السمع تعمل ضمن حدود معينة، فلا نستطيع السماع إلا داخل نطاق ترددات محددة.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩)



وانطلاقاً من هذه الأمثلة علينا الاعتراف بمحدودية عقولنا أيضاً، فبما أن عقل الإنسان يُصاب بالعجز أحياناً حتى تجاه المشاكل المادية المرئية، فمن الطبيعي أن يكون عاجزاً في المسائل الغيبية. ثمة عبارة جميلة للأديب ضياء باشا في هذا المجال، إذ يقول:

"ليس من شأن هذا العقل الصغير إدراك الحقائق السامية، لأن هذا الميزان الصغير يعجز عن حمل تلك الأثقال الكبيرة".

فلكل ميزان أيضاً- مثل حاسة البصر والسمع- حدود دنيا وعليا، وكذلك الأمر بالنسبة للعقل في ميدان الإدراك. فمحاولة إقحام العقل في مسائل القدَر الكبيرة وتحميله مهمة فك أسراره المبهمة والعميقة، تشبه تماماً محاولة وزن شاحنة كبيرة بميزان صغير يزن الصائغ به غرامات من الذهب!

فهنالك احتمال كبير جداً للوقوع في الأخطاء والضلال والانحراف عند إعمال العقل في مسائل خارج ميدان إدراكه، لأن أسلوب عمل العقل في مثل هذه المسائل المجهولة يستند إلى إطلاق العنان للفكر، والقياس، والتخمين والظن، والحدس، انطلاقاً من الأشياء التي تعلَّمها. وخير مثال على ذلك الضلالاتُ والانحرافات الفلسفية، ولهذا كان من الضروري جداً استخدام العقل تابعاً لما جاء في الوحي الإلهي في المسائل التي تتجاوز إدراك العقل.

يقول الله تبارك وتعالى:
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ (يونس: ٣١)

يمكننا إدراك عجز الإنسان أيضاً من خلال التأمل والتفكير بالآتي:

يوجد في جسم الإنسان آليات عمل كثيرة ومتنوعة جداً. فنحن البشر نقوم بعملية التنفس، وفي رئتينا تتم تنقية الدم من ثاني أكسيد الكربون، ويُحمَّل بالأكسجين الذي سوف يُنقل إلى خلايا الجسم. وأما القلب فإنه يعمل وينبض على مدى سنوات العمر دون كلل أو ملل، ودون توقف حتى ولو للحظة واحدة. وكل عضو في الجسم يحتاج إلى راحة، لكن القلب لا حاجة له للراحة أبداً، فهو يضخ الدم إلى كل خلية في الجسم.

وأما الكبد فإنه يضخ السكر الذي يجمعه من الغذاء بتوازن وبطء شديد إلى الجسم، وإذا ما ضخه دفعة واحدة فإن الجسم يتعرض للتسمم على الفور. وتمثل الكليتان نظامَ تصفية عالية الدقة...

وهناك كثير من الأنظمة وآليات العمل في جسم الإنسان... ولم تُسلَّم إدارة أي من هذه الآليات والأنظمة لشعور الإنسان ووعيه، وإنما تعمل كلها وفق البرنامج والتنظيم الإلهي وخارجاً عن إرادتنا، ففي كل واحدة من هذه الآليات حاسوب خاص بها إن جاز لنا التعبير.

لو سُلِّم زمام الأمور والإرادة لنا لوقفنا عاجزين عن إدارة أعضاء جسمنا، لأننا مجبولون على النسيان ونحتاج دائماً إلى النوم. وحتى عندما ننام فإن عمل الأعضاء يكون ضرورياً، لذلك فإن مالكها الحقيقي يؤمِّن عمل كل واحد منها بأتم انسجام.

"إن الكون من أوله إلى آخره كتابٌ مفتوحٌ، فإذا قرأت أي حرف من هذا الكتاب، فإنك تجد بأنه يدلك إلى الله، وإذا فكرت بأي ذرة من ذرات الكون، فإنها تقودك إلى الله".



هناك كثير من الحوادث التي عجز الإنسان بعقله المحدود عن فك ألغازها، فاعتقدَ أنها حوادث لا أسباب لها، ولم يستطع فهمها إلا بمرور الزمن عندما تبينت أسرارها والحكم الكامنة فيها. فكل شيءٍ في الكون يشهد بأنه مخلوق على أساس أنه جزء لا عيب ولا شائبة فيه لنظام عظيم؛ خلقه ذاتٌ لديه حكمة وقدرة لا متناهية، ويحيط بكل شيءٍ علماً.

ونورد فيما يأتي مثالاً من آلاف الأمثلة الأخرى:

إن الإنسان كان لآلاف السنين ينظر إلى أطراف أصابعه ويتأمل فيها، ولكن كل الناس الذين جاؤوا إلى هذه الدنيا وغادروها لم يستطيعوا إدراك أن رؤوس الأصابع هذه تحمل ختماً وتوقيعاً خاصاً بكل واحد منهم، وكأنه رقم سجل لهم. ولم يُكتشَف ذلك إلا في أواخر القرن التاسع عشر عندما سُمِّيَ هذا العلمُ بـ"علم البصمات".

وأما الكوكب الأرضي المليء بالأسرار اللامتناهية والتي قدمنا بعض الأمثلة عنها، فإنه لا يساوي حتى مقدار ذرة في عالم الفضاء العظيم. وما أكثر الخوارق والعجائب والكائنات العظيمة التي يحتويها هذا العالم...

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾
(يونس: ٣١)

يقول نجيب فاضل:
في الذرات تجد الأهازيج والأفراح
وتجد الأنوار ساطعة ساطعة
والعمارات متناسقة متداخلة، وكلٌّ بحاله منشغل
عندها أيقنت بك يا رب.

حتى المشركون لم يستطيعوا إنكار أن الله هو الخالق، إذ جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩)

ومع ذلك كله يريد الإنسان الأحمق الإنكار.

إن المنكرون في السابق تذرعوا وخدعوا أنفسهم والناس بقولهم: "إن هذا إلا سحر" على الرغم من مشاهدتهم للمعجزات الكبيرة والخارقة التي جاء بها الأنبياء والرسل، وكذلك حال المنكرين وأهل الكفر في أيامنا هذه.

إلا أن حججهم ضعيفة جداً حتى إنها لا تستطيع إخماد رغبة البحث عن الحقيقة في وجدانهم. فكم من علماء ملحدين لم يجدوا بداً من الاعتراف بوجود الخالق والإيمان به، بعد أن أمضوا سنوات طويلة في إجراء الأبحاث والدراسات والتجارب على جينات الإنسان.

إن حماقة إنكار الخالق تصدر عن عدم القدرة على الإقرار بوجود سبب لخلق الإنسان، ومن عدم تقبل المنكِر للإيمان بالله تعالى وأن يكون عبداً له، وسفيراً لرسوله، وخادماً لكتابه، مع أن قيمة الإنسان أساسها الخضوع لله سبحانه وتعالى والإقرار بالعبودية له.

إن الإنكار بؤس لأن المنكر الذي لا يرى للخلق غاية يعيش في الدنيا مثل المتهم بجرم الفار من وجه العدالة؛ فتراه يجول في الأرض منهكاً

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"قبل أن تقرأ آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ أصلحْ نفسك. وإذا كنت لا تشم روائح أزهار البستان الطيبة، فلا تبحثَنَّ عن العيب في البستان، وإنما ابحث عن العيب في قلبك وأنفك".



مضطرباً بعيداً عن الراحة والسلام والطمأنينة والسكينة، ويبقى مرعوباً حذراً في كل لحظة من وقوع المصائب والبلايا فوق رأسه.

ومن الجلي في عصرنا هذا ارتفاعُ نسبة الذين يعانون من الأمراض والمشاكل النفسية التي ساهم في زيادتها وانتشارها الإلحاد والتعلق بالدنيا.

فإذا أراد الإنسان أن يعيش حياته في سكينة وطمأنينة، عليه أن يتدبر الأفكار التالية:

- أيها الإنسان، اعرف حكمة وجودك!
- يا ابن آدم، اسأل نفسك: في ملك من تعيش؟ ثم أصلحها!
- يا ابن آدم، عش حياتك على أساس أن لها غاية!
- أيها الإنسان، تساءلْ: لمَ جئنا إلى الدنيا ثم نرحل عنها؟ وإلى أين يسير بك قطار الحياة؟
- أيها الإنسان، أمعن التأمل والتفكير بكل الآيات الناطقة والصامتة التي تسود في الكون، وفي نفسك، وفي القرآن، واقرأها بتدبر واحدة بعد الأخرى!

إن وجود الذين لا يتفكرون في كل هذه الحقائق ويصرون على الكفر يُعد بحد ذاته وسيلةً للتفكر والتأمل، وسيستمر وجود أهل الكفر والإلحاد الذين خُتم على قلوبهم في دنيا الامتحان هذه إلى يوم القيامة تجلياً من تجليات اسم الله تعالى "المذل".

يقول الشيخ سعدي الشيرازي:
"إن القلوب العارفة ترى في ورقة الشجرة ديوانًا يصف معرفة الله، أما القلوب الغافلة فلا تكاد ترى في الأشجار كلها ما يراه العارفون في ورقة واحدة".

فهم بوجودهم يثبتون لنا بأن العقل لا يكفي من أجل التفكر، والقلب لا يكفي من أجل الهداية، فهما ليسا إلا وسيلتَين، ولن تتجلى الهداية إذا لم يهبها الله ﷻ. وهذا الأمر سرٌّ من الأسرار الإلهية التي تدلنا على ضرورة الالتجاء إلى ربنا سبحانه وتعالى.

ومن وسائل التفكر الأخرى التي تبين للإنسان غاية وجوده هي عمرُ الإنسان، فالإنسان يُقادُ خلال حياته من مرحلة عمرية إلى أخرى دون إرادة منه، فيُنقَل من مرحلة المهد التي تتصف بالعجز التام إلى مرحلة الطفولة، فمرحلة الشباب التي تكون أوج القوة والطاقة والحيوية، وبعد ذلك يُساق مرة أخرى إلى الضعف والعجز حيث مرحلة الشيخوخة.

وتبدأ روح الإنسان التي تتوق للبقاء والخلود بإعلان نوع من التمرد على هذا المجرى الذي يسير بها مباشرة نحو الفناء، طارحة السؤال المصيري: "إلى أين المسير؟"، ثم تفكر ملياً بحقيقة الموت والمرحلة التي تليها.

السر الموجود في الإنسان

يعيش الإنسان حال مد وجزرٍ بين التقوى والفجور، أي إما أن يكون في (أحسن تقويم) أو في (أسفلِ سافلين)، وهو الكائن الأكثر موهبة وكفاءة من بين المخلوقات جميعاً، وقد أُعد الكون مرآةً لذاته، وسُخِّر له كي يتأمله.

يقول الشيخ غالب:

"أيها الإنسان، انظر إلى نفسك بعين قلبك، فإنك آدم الذي هو خلاصة العالَم، إنك جوهر الخلائق، وقرة عين الكون".



فكأن هذا الكون لوح زجاجي، وهذا الإنسان يضفي على ذلك اللوح صفة المرآة عندما ينظر إليها بعين التأمل والتفكر، ويصبح الكون عندها مرآةً لذاته، فالإنسان يرى فيها ضآلة نفسه، وجوهر الخلق. لذلك قيل:

"من عرف نفسه، فقد عرف ربه".

لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث الشريف:

"إن الله خلق آدم على صورته" (مسلم: البر، ١١٥)

إن الحقيقة المقصودة في هذا الحديث النبوي ليست الصورة الجسمية، وإنما الصورة الباطنية والمعنوية؛ فليس المقصود جانب الجسد والنفس، وإنما جانب الروح والسر.

وما يدل على هذا الأمر ويؤكده حقيقةُ نفخ الروح في الإنسان من عند الله تعالى، وحقيقة جعل الإنسان خليفة في الأرض، وحقيقة أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، إذ يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧٢)

لقد علم الله عز وجل آدم الأسماءَ كلها، وسيكون الإنسان بالعلم والخصائص التي أنعمها عليه ربُّه شاهداً لله تعالى على وجه الأرض، ويسعى جاهداً لقراءة الأسرار والحكم الإلهية الكامنة في ذاته وجوهره

يقول الإمام علي كرم الله وجهه:

داؤك منك وما تبصر   دواءك فيك وما تشعر
تحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

بإرشاد من كتاب الكون والقرآن الحكيم. وسيطوي هذا السعي الذي يقوم به المسافات أمامه في رحلته نحو "معرفة الله".

يُعد الإنسان الذي يستطيع تجاوز عائق النفس مظهرَ الفضائل ومعجزة الصنعة الإلهية، ويُعد خلاصة كتاب الكون، وفاتحته، وسر الخلق.

فهو على الرغم من أنه يبدو في الظاهر هيكلاً من لحم وعظم، إلا أن هناك الكثير والكثير من الأسرار، والأنوار، والحكم الإلهية الكامنة في كيانه المعنوي الروحي الذي يتخفى وراء هذا المظهر الخارجي. ويشير علي رضي الله عنه إلى هذه الحقيقة في أبيات شعرية يخاطب بها الإنسان، فيقول:

داؤك منك وما تبصر   دواؤك فيك وما تشعر

تحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها الشيخ غالب بقوله المشهور:

"أيها الإنسان، انظر إلى نفسك بعين قلبك، فإنك آدم الذي هو خلاصة العالم، إنك جوهر الخلائق، وقرة عين الكون".

إن إبليس لم يبصر الحقيقة الكامنة في آدم عليه السلام، فحسده ورفض السجود له وعصى ربه. وقد قال مولانا جلال الدين الرومي في ذلك:

"من الجيد أن يكون الإنسان ذا علم ومناقب حسنة، ولكن خذ العبرة من إبليس ولا تغتر كثيراً بذلك الإنسان العالِم! لأن إبليس

يقول الله عز وجل:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾

(الإنسان: ١)

أيضاً كان ذا علم، إلا أنه لم يرَ من آدم ﷺ إلا خَلقَه من تراب، ووجهه الظاهري، ولم يستطع رؤية وجهه الحقيقي".

إن الإنسان عندما يطهِّر قلبه من أهواء النفس بالتقوى، ويعيش حالاً من الطمأنينة والسلام الداخلي، فإنه يقطع مراحل متقدمة في آفاق التفكر والإدراك. وعندما يصل العبد إلى هذه الدرجة من النضج والكمال، يبدأ حجاب الغفلة الذي يفصل بينه وبين الله بالانكشاف والزوال ليعرف سر قولهم: "موتوا قبل أن تموتوا". ويتساقط كل ما يتعلق بالدنيا ومحبتها الفانية، وكافة الأشياء العابرة الزائلة، ومظاهر الجمال البراقة الزائفة من أمام عينيه، وتخرج من قلبه. وبذلك تنال الروح بقربها من خالقها لذةً عظيمة تعجز الكلمات عن وصفها. وكل ما يراه قلبه في الأشياء يذكِّره بالله تعالى، ويزيد من تعلقه بالله ومن قربه إليه، فيصبح مثل هذا التفكر مفتاحَ إيمان.

والدنيا تُعد بالنسبة لمثل هذا الإنسان مدرسةً عظيمة وقاعة امتحان.

مدرسة التفكر

إن كل شيءٍ في الكون من الذرة وحتى المجرة مظاهر للقدرة والعظمة الإلهية. ويصف ضياء باشا هذه المنظومة الإلهية بعبارة جميلة، إذ يقول:

"تُستخلص آلاف من الحقائق من تجليات الحكمة وأسرار المعرفة الكامنة في كل صفحة من صفحات كتاب الكون هذا.

لقد أعدَّ الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا للإنسان مع أنه لم يكن موجوداً لا باسمه ولا بجسمه. وقد تجلت الصنعة الإلهية وتنوعت في هذا الكوكب الصغير ليكون مادة غنية للتفكر.

فيا رب ما أجملها من مدرسة هذه الدنيا لمن يغوص في بحار التفكر، ويتأمل الآيات الإلهية ويعتبر بها".

إن الكون يُعد نوعاً من التفسير المفصل لمعجزة القرآن الكريم، إي إن القرآن الكريم عالمٌ مكون من الكلمات؛ وأما الكون فإنه قرآن بلا كلمات.

ويعبر أحد الشعراء عن هذه الحقيقة بقوله:

"الكون بأسره كتاب الله الأعظم، فأي حرف تقرأه من هذا الكتاب تجد الله تعالى في معناه، وإذا توقفت بفكرك على أي ذرة من هذا الكتاب فإنها توصلك إلى الله".

ويقول الشيخ سعدي الشيرازي:

"إن القلوب العارفة ترى في ورقة الشجرة ديوانًا يصف معرفة الله، أما القلوب الغافلة فلا تكاد ترى في الأشجار كلها ما يراه العارفون في ورقة واحدة".

هذا العالَم:

مدعاة لتفكر العقلاء

وطعام وشهوة للحمقى!

أي يُعد الكون الذي نعيش فيه بالنسبة لأصحاب الإدراك السليم مملكةً يشاهد فيها جمال الله وكماله اللامحدود، ويرى الخوارق والعجائب الكامنة في إبداع الله تعالى، فيتفكر في تجليات قدرة الله

يقول الله ﷻ:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩)



وعظمته. وأما بالنسبة للحمقى فإنه ليس إلا طعاماً وشهوةً كما الحال في سائر المخلوقات الأخرى. ويبين مولانا جلال الدين الرومي الحالة المزرية والتعيسة للمتعامين والغافلين عن تجليات العظمة في هذه الدنيا من خلال المثال التشبيهي الآتي:

ذات يوم ذهب ثور إلى بغداد، وتجول في المدينة من أولها إلى آخرها، حيث سار على أطراف نهر دجلة المليئة بمناظر الطبيعة الخلابة، وأمام الصروح والقصور الباسقة، وفي الحدائق والبساتين المزدانة بمختلف الأشجار والفاكهة والأعشاب. إلا أن عينه لم تستطع أن تبصر أياً من هذه المناظر الجميلة التي تأخذ بالألباب، فعينه لم ترَ إلا قشور البطيخ، والخضار المرمية على المزابل وأطراف الطرقات، فكان حاله تماماً كحال الغافل عن تجليات العظمة الإلهية في الكون!

إن الأرض التي نعيش على ظهرها كوكبٌ واحد في النظام الشمسي من بين المليارات من النجوم الهائلة الحجم. وعلى الرغم من الأبحاث والدراسات والرحلات الفضائية التي يقوم بها العلماء منذ سنوات طويلة، لم يُكتشَف إلى اليوم كوكب آخر يضج بالحياة مثل كوكب الأرض. وكل الكواكب التي تم اكتشافها حتى الآن إما شديدة الحرارة، أو شديدة البرودة، أو ليس فيها أوكسجين، أو أنها كواكب غازية أو صخرية بحيث لا تسمح ظروفها بالعيش عليها.

يقول الله تعالى مذكراً الإنسان:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾ (لقمان: ٢٠)

يُقدِّر العلماء عمرَ الكون منذ خلقه بثلاثة عشر مليار عام، ويكاد وجود الإنسان يصادف الفصول الأخيرة لهذا العمر الزمني الطويل. والله ﷻ أيضاً يريدنا أن نتفكر في هذه الحقيقة، إذ يقول:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (الإنسان: ١)

فلم يكن الإنسان موجوداً ومذكوراً على الإطلاق لا باسمه ولا بجسمه. ومع ذلك فإن الحق سبحانه وتعالى قد أعدَّ هذه الدنيا له. وقد تجلت الصنعة الإلهية وتنوعت في هذا الكوكب الصغير بصورة خاصة ليكون مادة غنية لتفكر الإنسان.

فكِّرْ بعكس الأمور

فلنتفكر قليلاً، كان من الممكن أن يوجِدنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الأرض في عالَم لا نستطيع فيه ألبتة رؤية مختلف أنواع الكائنات الحية التي نراها اليوم والتي هي تجليات لاسمَيه "البارئ والمصور". فإيجادها إذاً وخلقها في هذا العالم الذي نعيش فيه نعمةٌ من أجلِّ النعم كي نستفيد منها من جهة، ولكي نوسِّع آفاق تفكيرنا من جهة أخرى.

إن أغلب المخلوقات الأخرى تتغذى على أنواع قليلة من الطعام، وكان من الممكن أن يخلقنا الله ﷻ أيضاً مثل تلك الحيوانات. فمختلف الأطعمة الحيوانية والنباتية من أنواع الحبوب، والفواكه، واللحوم،

يدعي أتباع نظرية التطور والارتقاء أن المخلوقات تطور نفسها بنفسها وتكيِّف نفسها مع احتياجاتها ورغباتها نتيجة للظروف البيئية المحيطة بها. ولو أن هذا الادعاء صحيح، فأي مخلوق كان يرضى بأن يختار لنفسه عمراً قصيراً؟ وأي مخلوق كان سيرضى بأن يكون- بإرادته- طعاماً لمخلوق آخر؟



والحليب، وغيرها إكرامٌ خاص منه تعالى. ومختلف أنواع الورود من ياسمين، وبنفسج، ورياحين، وغيرها الكثير التي تنعش الروح بألوانها الزاهية، ورائحتها الزكية، ومناظرها الخلابة هي أيضاً من كرمه تعالى...

والحيوانات التي نركبها من إحسانه...

والبلابل التي ترقِّق القلوب بأصواتها الشجية من فضله علينا...

والطيور التي تسيح بين القارات دون أن تتيه وكأن معها بوصلات وخرائط دقيقة هي من صنعه تعالى...

والحيوانات السامة والمفترسة، والثعابين، والعقارب التي تُدهِش الإنسان بمناظرها وتدعوه إلى التفكر بغضب الله هي أيضاً من إحسانه...

لو أن الله ﷻ لم يقدِّر مسار كوكب الأرض والشمس وتموضعهما بهذه الدقة العجيبة، ولو لم يكن هناك ميل بدرجة ٢٣,٥ في محور الأرض لما وجدنا الفصول الأربعة، ولما تعاقبت فيما بينها؛ فهذا توازن بيئي إلهي عظيم مدهش...

ولو أنه ﷻ لم يقدِّر سرعة دوران الأرض حول محورها كما هي عليها الآن، لما تعاقب الليل والنهار، ولكانت الدنيا إما نهاراً دائماً أو ليلاً. والقمر القريب من الأرض نسبياً مثال آخر على قدرة الخالق، إذ إن طرف القمر المتجه إلى كوكبنا دائماً هو الطرف نفسه لتوازن دورانه حول نفسه مع دورانه حول الأرض، لهذا فإن الطرف الآخر مظلم دائماً.

من المستحيل أن يُزَادَ في عمر إنسان انتهى أجله ولو لحظة واحدة حتى وإن اجتمع الناس جميعاً!
ويستحيل أيضاً نقل أجله من الساعة التي قُدِّرَ له الوفاة فيها!

ولأننا عاجزون حتى عن التفكير بهذه الاحتمالات، فإن الحق سبحانه وتعالى يأمرنا بالتفكير بصيغة السؤال، فيقول مثلاً:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧١-٧٢)

كان من الممكن ألا يكون هناك الماء العذب الزلال الذي لا نستطيع العيش دونه أبداً، وكان من الممكن أيضاً أن تمطر علينا السماء مياهاً مالحة ومرة، مثل تلك التي تمتلئ بها البحار والمحيطات. إلا أن الله تعالى أكرمنا إذ صفَّى تلك المياه بنظام تكرير وتصفية عظيم وفريد، ثم أحيا بها البساتين والحقول. وجعل مياه الينابيع التي تتفتق من باطن الأرض غنية بمواد معدنية، وطرح فيها البركة ثم أكرمنا بها.

إن ربنا سبحانه وتعالى يسألنا طالباً منا التفكر والشكر:

فلولا تشكرون

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة: ٦٨-٧٠)

هناك كثير من خلق الله يعجز الإنسان حتى عن تقليدها. فها هي مثلاً الشاة أو البقرة، كل واحدة منها تأكل الحشائش، وتشرب الماء، وتنتج الحليب. حليبٌ يعجز الإنسان عن إنتاجه من الحشائش والماء حتى وإن أقام أضخم المصانع، واستخدم فيها أحدث الأجهزة التكنولوجية والالكترونية!



من المعلوم أن الماء سيال متدفق، والأرض ممتصة للمياه... ويوجد في الباطن طبقات عميقة يعجز الإنسان عن الوصول إليها... وما بعد تلك الطبقات هناك كتل نارية ملتهبة... ومع ذلك فإن المياه التي تمطرها السماء لا تزول وتختفي، وماذا لو اختفت؟ ويذكّرنا الله ﷻ بذلك في قوله:

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١٨)

ويكرر ربنا سبحانه وتعالى السؤال في موضع آخر، إذ يقول:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك: ٢٩)

لقد جعل الله ﷻ للماء ميزة أخرى، إذ جعل الأجسام تطفو فوق سطحه، فاستطاع الإنسان السفر فوقه عن طريق السفن والبواخر. وماذا لو أن ربنا سبحانه وتعالى لم يجعل للماء هذه الخاصية؟

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤)

إننا لو رمينا بحصاة صغيرة في البحر فإنها تنزل إلى أعماقه فوراً، ومع ذلك فإن هناك سفناً وبواخر ضخمة تبلغ أوزانها الأطنان، وفوق ذلك تحمل

لو سُلِّم زمام الأمور والإدارة لنا لوقفنا عاجزين عن إدارة أعضاء جسمنا، لأننا مجبولون على النسيان ونحتاج دائماً إلى النوم. وحتى عندما ننام فإن عمل الأعضاء يكون ضرورياً، لذلك فإن مالكها الحقيقي يؤمِّن عمل كل واحد منها بأتم انسجام.

الأطنان من البضاعة ثم تمخر بكل سلاسة على سطح الماء، لأن القانون الذي قدَّره الله للماء هو دفعُهُ للأجسام الأخف منه كثافة إلى الأعلى.

إن أغلب الاختراعات التكنولوجية تشكلت بالاقتباس من الطبيعة وتقليدها، أي الاقتباس من صنائع الله ﷻ.

فمثلاً اتخذ الأخوان رايت- اللذان صنعا أول طائرة- جناحَ النسر نموذجاً لتقليده في صناعة جناح الطائرة. وعلى الرغم من كل التطورات التقنية الحاصلة فإن أحدث الطائرات ليست إلا نسخة تقليدية كبيرة لطائر ما.

إذاً الطائرات تُصنع بتقليد الطيور، فالطائرات القصيرة المدى والصغيرة تكون تقليداً للطيور الصغيرة مثل عصفور الدوري، وأما الطائرات البعيدة المدى فإنها تصنع تقليداً للطيور التي تطير لمسافات طويلة مثل اللقالق.

وإذا تفكرنا قليلاً نجد أن الإنسان احتاج إلى مرور آلاف السنين حتى ينجح في هذا التقليد، على الرغم من عشرات العقول الفذة، والأذكياء، وتوارث المعلومات من جيل إلى آخر.

لكن أي طائر في الطبيعة يبدأ بالطيران بعد خروجه من قشرة البيضة التي تحيط به بمدة قصيرة جداً، يقول الله تبارك وتعالى في شأن الطيور:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٧٩)

إن الحيوانات التي نستفيد من لحومها وحليبها لا تعصي الإنسان، ولا تبخل أيضاً. ونرى أن حيواناً ضخماً مثل الفيل يستطيع طفل لصغير أن يمسك بزمامه ويقوده إلى حيث يشاء. فمَن الذي جعل تلك الحيوانات طوع أمر الإنسان، وأعدها له؟ وماذا لو أنه لم يُخضِعها للإنسان؟



وأما بالنسبة لأغلب الحشرات الطائرة وبنية أجنحتها فإن التكنولوجيا لم تنجح إلى اليوم في تقليدها. وهناك الكثير والكثير من الصنائع الإلهية الأخرى التي يعجز الإنسان حتى عن تقليدها. فها هي الشاة أو البقرة مثلاً، كل واحدة منها تأكل الحشائش والأعشاب اليابسة، وتشرب الماء ثم تنتج الحليب! فهل يستطيع الإنسان إنتاج الحليب من الأعشاب والماء؟ كلا، لا يستطيع ذلك، حتى وإن أشاد أضخم المصانع، واستخدم فيها أحدث ما توصل إليه العلم من وسائل التكنولوجيا!

إننا نتنفس، ومستويات غاز الأوكسجين الذي نتنفسه بحالة توازن تام في الهواء، وموجود بشكل كافٍ ومتناسب في كل مكان نعيش فيه.

فماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ ماذا لو أن الإنسان كان بحاجة إلى البحث هنا وهناك عن الأكسجين في الهواء خشية نفاده؟

إن عالم النباتات الذي نتغذى من خضرواته وفواكه المتعددة الأشكال والأصناف، وتنتعش قلوبنا بأزهاره المختلفة ألوانها وروائحها، إنما وُجد من خلال عملية التركيب الضوئي التي هي الأخرى من إكرام الله تعالى. وماذا لو لم يكن موجوداً؟ ماذا لو أن هذه الدنيا كانت عالماً من الصخور والجبال الجرداء القاحلة؟

إن أعمار النباتات والحيوانات سبب للتفكر والتأمل.

إن العلوم التي لا تلبي الحاجات الأصلية، ولا تكون قابلة للعيش، ولا تتحول إلى عرفان، لن تفيد عندما تصطدم سفينة العمر الفاني بجدران سراديب الأجل.

فإلى جانب النباتات الموسمية التي تعمِّر لفصل واحد، هناك أشجار يمكن أن تعمر لأكثر من ألف عام كشجرة الزيتون مثلاً.

وبينما الفراشات تعيش أسبوعاً في عالم الأحياء، فإن السلاحف قد تعمر لأكثر من قرن من الزمن، وتعيش نحلة العسل حتى تنتهي مهمتها التي تمتد لمدة ٤٥ يوماً. فما أبدع هذا التوازن الطبيعي ضمن هذا النظام الكوني العظيم!. ومن الحكمة البالغة أيضاً تنوع فترات النمو لدى الكائنات، إذ نجد أن بعض الكائنات بطيئة النمو، في حين أننا نرى بأن الكائنات الحية التي تكون غذاءً لمخلوقات أخرى تنمو بسرعة كبيرة.

ومن ناحية أخرى هناك تدرج متوازن في عملية خلق الكائنات، وقدومها إلى الدنيا، ولنأخذ نوعاً ما من الحيوانات مثالاً، فنجد أن هناك أعداداً هائلة منه قد وُلِدَت، وسوف تُولَد أيضاً في المستقبل، ولو أن أعداد هذا النوع أُرسلت إلى الدنيا دفعة واحدة، فإن الدنيا لم تكن لتتسع لهذا النوع فقط، وما كان الغذاء الموجود فيها ليكفيه وحده. إلا أن الله سبحانه وتعالى وزَّع أعدادها بسِرِّ عامل الزمن مع سر المكان وخلقها وفق قانون التسلسل والتتابع.

والأمر ذاته ينطبق على كافة الكائنات الحية. لذلك فإن الدنيا بسرَّي الزمان والمكان يمكن أن تكون مسرحاً لاحتواء كميات وأعداد تفوق طاقتها الاستيعابية الطبيعية بمليارات الأضعاف.

إن عالم النباتات الذي نتغذى من خضرواته وفواكه المتعددة الأشكال والأصناف، وتنتعش قلوبنا بأزهاره المختلفة ألوانها وروائحها، إنما وُجد من خلال عملية التركيب الضوئي التي هي الأخرى من إكرام الله تعالى. وماذا لو لم يكن موجوداً؟ ماذا لو أن هذه الدنيا كانت عالماً من الصخور والجبال الجرداء القاحلة؟



أي إن وجود الكائنات في عالمنا خاضع لتوازن دقيق. ومثال ذلك شجرة الدلَّب الضخمة؛ فالحقيقة المعروفة أن هذه الشجرة تنتج في السنة الملايين من البذور، وتنتقل هذه البذور إلى مختلف الأماكن، ولمسافات بعيدة جداً بفعل الرياح، فكل بذرة تحيط بها أوبار وكأنها مظلة أو منطاد تنتقل به. فلو قُدِّرَ لكل بذرة من البذور التي تنتجها شجرة واحدة من هذا النوع أن تنمو وتتحول إلى شجرة، لاستولت أشجار الدَّلب خلال فترة قصيرة على كافة المساحات الصالحة لنمو النباتات؛ أي لضاقت هذه الدنيا الواسعة بنوع واحد من الأشجار. وينطبق هذا المثال على سائر الكائنات الأخرى، وهذا يدل على وجود توازن وانسجام سري في الكون لا يمكن إنهاؤه بسهولة. وكذلك فإن الحيوانات التي تتكاثر بسرعة كبيرة لا تستطيع أن تسيطر على الدنيا، لأن هناك الكثير من الحيوانات الأخرى التي تتغذى على مثل هذه الأنواع وبذلك يتم تحقيق توازن في الطبيعة.

فمن يحقق هذا التوازن؟ ذلك أننا لا نجد مديراً ظاهراً للغابات، والبحار، والجبال. إلا أن كلاً منها تتحرك بانسجام وتناسق عجيب بأمر الحق سبحانه وتعالى، وكلها راضية طائعة. فالفراشة مثلاً لا تقول:

"لمَ عمري أسبوع، وعمر السلحفاة قرن من الزمن؟"، وإنما الكل راضٍ بحاله.

إننا نتنفس، ومستويات غاز الأوكسجين الذي نتنفسه بحالة توازن تام في الهواء، وموجود بشكل كافٍ ومتناسب في كل مكان نعيش فيه. فماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ ماذا لو أن الإنسان كان بحاجة إلى البحث هنا وهناك عن الأكسجين في الهواء خشية نفاده؟

والحيوانات التي نستفيد من لحومها وحليبها لا تعصي الإنسان، ولا تبخل أيضاً. ونجد أن حيواناً ضخماً مثل الفيل يستطيع طفل لصغير أن يمسك بزمامه ويقوده إلى حيث يشاء. فمَن الذي جعل تلك الحيوانات طوع أمر الإنسان، وأعدها له؟

وماذا حصل لو أن الحيوانات لم تخضع للإنسان؟

يدعي أتباع نظرية التطور والارتقاء والمصادفة والطفرة بكل حماقة أن المخلوقات تطوِّر نفسها بنفسها وتكيِّف نفسها مع احتياجاتها ورغباتها نتيجة للظروف البيئية المحيطة بها.

إذاً؛ لو أن هذا الادعاء صحيح، فأي مخلوق كان سيرضى بأن يختار لنفسه عمراً قصيراً؟

وأي مخلوق كان سيرضى بأن يكون- بإرادته- طعاماً لمخلوق آخر؟

فمن المستحيل أن يزاد في عمر إنسان انتهى أجله ولو لحظة واحدة حتى ولو اجتمع الناس جميعاً!

ويستحيل أيضاً نقل أجله من الساعة التي قُدِّر له الوفاة فيها إلى ساعة أخرى! لأن كل حادث في الكون هو بتقدير إلهي...

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩)

إن كل ذرة في هذا العالَم تتحدث مع القلوب الحيَّة المقرَّبة إلى الحق سبحانه وتعالى، وسائر الكائنات تتكلم بلسان حالها.



ويقول الحق سبحانه وتعالى مذكراً:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠)

التفكر في الثلج

في فصل الشتاء تهطل الثلوج فتزين الدنيا بنصاعة بياضها وجمال منظرها، إلى جانب الحِكَم الكثيرة التي تحتويها. هذه الثلوج تبث بلونها الأبيض البهجة والانشراح في قلوب الذين ينظرون إليها في فصل الشتاء الذي تطول لياليه، وتزداد ظلمة. وكم كانت ستسبِّب هذه الثلوج الكآبةَ والقسوة، وتغرق الناسَ في حال من الجنون، لو أنها هطلت من السماء بلون قانٍ شبيه بالدم، أو بلون أسود يذكِّر بالمآتم والأحزان!

وعدا عن ذلك فإن هناك أنواعاً مختلفة من المخلوقات تتجمد وتُحفَظ دون موت في باطن الأرض تحت تلك الثلوج التي تصبح كالجليد. وعندما يحل فصل الربيع وتذوب الثلوج تخرج من تحتها أشكال متعددة من الحيوانات والحشرات التي تضج بالحيوية والنشاط.

ويبيِّن الحق ﷻ أن صنعته البديعة لا تخضع لتأثير الظروف والشروط الطبيعية. فمثلاً نجد بأن الله تعالى يُنبِتُ زهرة الثلج من تحت الثلوج في

لا يوجد في الكون أي ذرة لا تعرف حالها. وكافة المخلوقات تحمل توقيع قدرة الخالق ﷻ الذي أوجدها من العدم، حتى بصمة إصبع الإنسان.

وقت تكون فيه أغلب النباتات غير قادرة على الاستمرار بالحياة. فأزهار الثلج تعد إحساناً فوق إحسان...

﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: ٣٩)

فنمو أزهار الثلج وتفتحها في فصول الشتاء القاسية حين تذبل سائر الأزهار الأخرى وتتجمد، ما هو إلا تجلٍ من تجليات إبداع إلهي لا يتأثر حتى بأصعب الظروف. ونباتات الصبَّار التي تُعد خزانات مياه في الصحاري القاحلة هي الأخرى من عجائب صنعه... فإبداع الله تعالى لا ينقطع أبداً، بل يستمر في كل الفصول، وفي مختلف الظروف...

فالله ﷻ يفتح بصنائعه وقدرته اللامتناهية نوافذَ مختلفة الأشكال للتفكر والتأمل... فتارةً نجد أنه قد أنبت شجرة تين فوق حائط، أو من قلب صخرة صماء، فتكون درساً رائعاً للإنسان كي لا يقع فريسة اليأس والإحباط في الحياة. وهذا يعني أن على الإنسان أن يسعى آخذاً بالأسباب، فإذا توكل الإنسان مع الأخذ بالأسباب، فإن العون الإلهي يمكن أن يتجلى حتى في أشد الظروف والأحوال التي يتوقع أنه بقي وحيداً فيها!

هناك كثير من الأزهار والورود التي لا تنمو إلا على ارتفاعات عالية... وهناك كثير من أشجار الفاكهة التي لا تثمر إلا في مناخ معين... فالفاكهة والثمار المخصوصة بأقاليم ومناطق ذات مناخ معين ما هي كرم إلهي لتلبية احتياجات الإنسان...

يقول الشيخ سعدي:

"خير جواب للجاهل الذي لم تُفلِح في إسكاته بالقرآن والحديث إنما هو السكوت".



فكل شيءٍ مما تقدم هو سر من الأسرار الكامنة في الكون...

فلنتأمل ولنفكر بشجرة فاكهة التي تتحول من بذرة صغيرة إلى غرسة، ثم من الغرسة إلى شجيرة، ثم إلى شجرة مثمرة:

فلهذه الشجرة نظام يتكرر في كل موسم، لها تقويم معين، وكأن في داخل تلك الشجرة- التي نحسبها هيكلاً من الخشب- حاسوباً وغرفة عمليات تصدر منها الأوامر، وتطبق كل تلك الأوامر بحذافيرها دون تلكؤ:

فعندما يحين الوقت المحدد تتفتح الأزهار، فتصبح تلك الأزهار بألوانها الزاهية الجذابة، وروائحها وعطورها المنعشة بشارةً للناس في فصل الربيع، وتدعو الشجرة إليها في الوقت ذاته الحشرات والطيور التي سوف تنقل بذورها إلى أماكن أخرى.

وبعد تفتح الأزهار تظهر الأوراق على الأغصان، وتقدِّم تلك الأوراق بدورها لنا ألواناً مختلفة من الخَضَار، تبعث البهجة والانشراح في نفوسنا، وترينا مشاهد ومناظر خلابة.

وتلك الأوراق تُعد ألواح طاقة حيوية لعملية التركيب الضوئي، وفي الوقت ذاته فإن الشجرة مصدر لغذاء الكثير من المخلوقات المحيطة بها، وكذلك فإن الشجرة ذات الأوراق مصدر مهم لنعمة الظل... ثم تتشكل

إن مَن يمتلك الإيمان الحقيقي والرحمة التي هي الثمرة الأولى للإيمان لا يستطيع أن يقتل حتى نملة من غير ضرورة، ولا أن يقتلع شجرة.

الثمار من البراعم المتبقية بعد الأزهار، وتلك الثمار على الرغم من تلقيها لغذائها من الماء ذاته والتربة ذاتها تكون مختلفة الألوان، والأشكال، والمذاق.

كأن في أصل كل شجرة مضخة تسحب الماء من الأرض وتضخها إلى الأغصان والأوراق من أسفل الشجرة حتى قمتها، فلا يفيض هذا الماء ويتسرب من الشجرة أبداً.

ولكل ثمرة قشرةٌ خاصة بها، فثمة قشرة رقيقة مثل الغشاء، وأخرى سميكة مثل الخشب...

إن هذه القشور التي تدل على تنوع إبداع الخالق كأنها حافظة توضع فيها الأطعمة لحفظها من التلف.

فكل ثمرة لا تبقى كثيراً بعد تجريدها من قشرها، ذلك أنها إما أن تسري إليها الحموضة، أو تفسد، أو تجف، وإما أن يتغير لونها ويتحول للسواد. ولا يمكن المحافظة عليها إلا بوضعها في الثلاجات، أو بإضافة مواد حافظة إليها.

ولكن نرى أن هناك الكثير من الثمار والفواكه تبقى سليمةً داخل قشورها التي تُعد حوافظ طبيعية لعدة شهور دون أن تفسد، فعندما نتفكر بها ونتأملها ندرك بأنها أسرار إلهية عظيمة.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٥)



وهناك كثير من الثمار التي تحمل بداخلها بذور شجرتها، وبذلك فإن الشجرة التي لا تستطيع السير والتحرك تحافظ على استمرار نسلها بثمارها.

فمَن الذي يطبق هذا النظام المتكامل العظيم في كل بذرة لا تكاد تُرَى؟

دعونا نستمر في التفكر والتأمل بهذه النعم الإلهية التي لا تُعد ولا تُحصى: هل فكرنا يوماً بنعمة الظل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا﴾ (الفرقان: ٤٥)

لو أن الله تعالى لم يقدِّر نظام الدوران حول الشمس كما هو موجود الآن، ولو أنه خلق النظام الشمسي بحيث يكون في مركزه أكثر من نجمة كما هو الحال في كثير من الأنظمة التي تم اكتشافها في الكون، أو أنه لم يخلق على وجه الأرض الأشجار وغيرها من الأشياء التي تشكل لنا الظلال، أو أنه خلق الأرض بشكل مستوٍ كالصحاري الشاسعة، لكنَّا محرومين من الظل الذي يُعد إحدى أكبر النعم.

ينبغي للإنسان في بحر هذه الاحتمالات أن يتفكر في جسده أيضاً.

"لو قيل: هات عينَيك، وخذ الدنيا!" فأي إنسان يمكن أن يقبل هذا العرض؟

"ولو قيل: هات أذنَيك، وخذ الدنيا!" فمن يستطيع التخلي عن نعمة السمع؟

نعمة العين

العين قطعة شبيهة بالجيلاتين تزن خمس غرامات تقريباً. ويلتقط هذا العضو الرائع الصورَ دائماً ويخزنها في الذاكرة الموجودة داخل المخ. ويمكن أن يقوم الإنسان بين الحين والآخر بالدخول إلى تلك الذاكرة واسترجاع ذكرياته، واستعراض تلك الصور أمام عينيه.

لو قيل: هاتِ عينَيك، وخذ الدنيا!، فأي إنسان يمكن أن يقبل هذا العرض؟ ولو قيل: هاتِ أذنَيك، وكن أصماً، وخذ الدنيا!، فمن ذاك الذي سيقبل التخلي عن نعمة السمع؟

إننا نتقلب بين هذه النعم ونفرح بها، ولكن من الضروري أيضاً التفكير بثمنها، لأن لهذه النعم ثمناً. وثمنها شكر الله عليها، أي استعمال تلك النعم بما يرضي الخالق سبحانه وتعالى.

ويذكرنا الله سبحانه وتعالى بذلك في القرآن الكريم، إذ يقول:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)

سيُحاسب الله ﷻ حساباً عسيراً أولئك الذين لا يؤدون شكر هذه النعم، أي الذين لا يستعملون النعمة للغاية التي أُعطيت من أجلها، ويستعملونها في السيء من الأعمال. فكل واحدة من هذه النعم التي لم

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦-٨)



يُدفع ثمنها سوف تنقلب إلى نقمة شديدة على صاحبها. يقول الله ﷻ مؤكداً على محاسبة الإنسان:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الدخان: ٣٨)

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦-٨)

فإن استطاع الإنسان الذي يأتي إلى هذه الدنيا وهو أعمى أو أصم المحافظةَ على نفسه من الوقوع في الذنوب التي يكون مصدرها البصر أو السمع، ولم يعترض على هذه الإعاقة التي وُلِدَت معه، فإن حالته التي تبدو في الظاهر كدراً وهماً سوف تتحول في الحقيقة إلى سرور. ومثل هؤلاء الأشخاص سوف يفرحون في الآخرة، ويقولون:

"الحمد والشكر لله أني كنت أعمى، وكنت أصماً، ولم أقترف الذنوب والمعاصي".

ومن أحد تجليات الرحمة في الخِلقة أيضاً هو أن الله سبحانه وتعالى أعطى عباده الذين حرمهم من نعمة البصر قدرة إضافية في حواسهم

يقول الله تبارك وتعالى:
﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)

الأخرى. ذلك أن حاسة السمع واللمس عند الأعمى أدق وأحد وأقوى بكثير مما هي لدى المبصرين، ويُعد هذا الأمر من قدرة ربنا سبحانه وتعالى وكرمه اللامحدود...

والأمر كذلك بالنسبة للفقر والغنى، فالفقير إن لم يعترض على فقره ولم يتذمر من حاله، وأظهر الرضا بقضاء الله ﷻ، فإن فقره ربما سيتحول إلى وسيلة لتحقيق الغنى الأبدي. فلو أن ذلك الفقير كان غنياً في هذه الدنيا، فلربما كانت الثروة التي بين يديه ستفسد فطرته السليمة، وتولِّد في نفسه وهْمَ الإحساس بالقوة والقدرة، ولربما انزلق في غفلة منه نحو الشهوات والمتع الدنيوية، فتجعل هذه الثروة سعادته الأبدية هباءً منثوراً. وخير مثال على ذلك العاقبة الوخيمة التي انتهى إليها قارون وبلعام والتي أخبرنا بها الله ﷻ في القرآن. ولا شك أن عكس ذلك كله ممكن أيضاً.

والخلاصة أنه ينبغي للمؤمن أن ينظر إلى كل حال يتقلب فيها نظرة خير وتفاؤل، ويُظهِر الرضا بتقدير الله، فالرضا فرصةٌ له لتحقيق الفلاح الأبدي، وعليه أن يبذل جهده ليحيا حياةً ملؤها الصبر، والشكر، والتسليم لله تعالى. ويقول الله تبارك وتعالى في إشارة إلى ذلك:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

"عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له". (مسلم: الزهد، ٦٤)

وهذا حال القلب الذي نضج ونال نصيباً من "معرفة الله". ولن يستطيع القلب الجاهل إدراك هذا الأمر.

وماذا لو كان الله ﷻ قد خلقنا مثل سائر المخلوقات الأخرى؟

إكرامه تعالى

إن المتفكر بهذه الأشياء يدرك مدى عظمة نعمة التفكير التي أكرمنا المولى ﷻ بها.

وعندما يتفكر الإنسان بهذه النعمة، ينبغي له الشكر عليها مرة أخرى، لأن خلق الكثير من الفرص والوسائل من أجل نعمة التفكر التي تُعد مفتاح الإيمان والعبادة التي ستوصل الإنسان إلى بر الأمان والفلاح يُعدُّ عوناً عظيماً من الله تعالى لعباده.

لا شك أن جعل الدنيا مُسَخّرةً للإنسان ضمن كل المخاطر وقلة الإمكانات المحيطة به هو من تقدير الحق سبحانه وتعالى وخلقه.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الدخان: ٣٨)

إذ يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣)

وأمام هذا الخلق والإبداع فإن العبد سوف يزيد من تفكيره وتأمله، وسوف يكون بحال الشكر لله تعالى على هذه النعم العظيمة...

وهذا يبين لنا حقيقة تسخير الأرض للإنسان، وحقيقة كونها مخلوقة لتأمل الإنسان ومكانٌ لامتحانه.

ويدعونا الله ﷻ باستمرار إلى التفكير بكل ما حولنا، فيقول:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠)

إن تكوين الإبل يناسب ظروف الصحراء التي تعيش فيها. والله سبحانه وتعالى أوجد مخلوقات في المناطق القطبية، وكذلك في أعماق المحيطات والبحار، وعلى قمم الجبال، وفي السهول والصحاري، وأظهر بديعَ صنعه في كل مخلوق من هذه المخلوقات المختلفة.

وهذا الهواء الذي نتنفسه غير متوفر في كل مكان من الفضاء، ويوجد في الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية غاز الأوكسجين بنسبة ٢١ ٪

> ثمة في باطن الأرض بحر من النيران الملتهبة، وفي السماء كتلة هائلة من النار مصدرها الشمس... وبين هذه النيران الحارقة يهبنا الله تعالى حياةً تسودها البرودة والسلامة. وعندما يرتقي الإنسان بروحه بين نيران النفس والشيطان المحيطة بها ويقترب من "معرفة الله" فإنه يأمن شرها وينجو منها.



تقريباً وذلك بمقدار ما نحتاجه تماماً. ولو زادت نسبته درجةً واحدة لكانت ستسبب الحرائق في الدنيا بصورة دائمة، لأنه غاز قابل للاشتعال.

ومن الأمور الأخرى التي تدعو للاعتبار نقصُ الأكسجين، وزيادته، إذ لو نقص غاز الأكسجين بمقدار قليل فإن العروق والشرايين تنتفخ بشكل مفاجئ، وإذا ازداد قليلاً فإن الشرايين تتقلص فوراً.

إننا نستطيع أن نحيا حياة هادئة مطمئنة على وجه الأرض دون أن نطلع على طبيعتها. وفي الحقيقة هناك في باطن الأرض بحر من النيران الملتهبة، وما يؤمن لنا الحياة فوق هذا البحر من النيران باستقرار ودون التعرض للارتجاجات التي تحدث أحياناً بفعل الزلازل والبراكين إنما هو الجبال الراسخة في الأرض وكأنها مثبِّتات لقشرتها.

دعونا نتأمل أيضاً بمصدر الحياة "الشمس" التي نستفيد في كل لحظة من ضوئها وحرارتها.

كتل لهب في سمائنا

إن المسافة التي تفصل بين الكرة الأرضية والشمس ١٥٠ مليون كيلو متراً. ويمكن قطع هذه المسافة خلال ثمان دقائق بسرعة الضوء، فتخيلوا مسافات المجرات، والنجوم، والكواكب الأخرى!

إن الكون يُعد نوعاً من التفسير المفصل لمعجزة القرآن الكريم، أي إن القرآن الكريم عالمٌ مكون من الكلمات؛ وأما الكون فإنه قرآن بلا كلمات.

ويُقدر عمر الشمس بحوالي خمس مليارات سنة. وتستمد حرارتها من الموقد النووي الموجود في مركزها وتستمر باشتعالها واحتراقها.

وأما حجمها فهائل جداً، إذ إنها تتسع لمليون وثلاثمئة ألف كوكب بحجم كرتنا الأرضية.

وتبلغ درجة حرارة قشرتها الخارجية ست آلاف درجة مئوية، وأما حرارتها الداخلية فتبلغ عشرين مليون درجة مئوية.

وهذا يعني بأن الحق سبحانه وتعالى قد وهبنا حياةً تسودها البرودة والسلامة بين كتلتين هائلتين من اللهب، كتلة في باطن الأرض، وكتلة عظيمة في السماء ألا وهي الشمس.

عندما يرتقي الإنسان بروحه بين نيران النفس والشيطان المحيطة بها ويقترب من "معرفة الله"، فإنه يأمن شرها وينجو منها.

إننا نُرزق بالنباتات، والأزهار، والفواكه من خلال عملية التركيب الضوئي التي جُعلَت الشمس وسيلةً لتحققها.

وفي كل ثانية تتحول في الشمس خمسمئة وأربعة وستين مليون طن من الهيدروجين إلى خمسمئة وستين مليون طن من غاز الهيليوم، وتنتشر الأطنان الأربعة الباقية من الغاز على شكل طاقة وأشعة.

وإذا أجرينا عملية حسابية وفق الكتلة المفقودة:

لم تدرك الإنسانية توسع الكون إلا في القرن الماضي، بينما أخبرنا القرآن الكريم بذلك منذ أربعة عشر قرناً:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)



فإن الشمس تفقد في كل ثانية أربعة ملايين طن من المادة، بحيث تبلغ في الدقيقة الواحدة ٢٤٠ مليون طناً . ولكن ما فقدته الشمس من مادتها إلى اليوم لا تبلغ سوى نسبة واحد من خمسة آلاف.

إن ضوء الشمس لا ينير كل نظامها، بل يصل هذا الضوء إلى غلافنا الجوي وكأنه في سلك كهربائي مغلف ومعزول دون أن يتسرب منه شيءٌ إلى الخارج. وعندما يلامس الغلاف الجوي للأرض فإن ذلك المغلَّف ينفتح، ويبدأ النور بالانتشار كالمصباح الكهربائي الذي يُضغط على زر تشغليه، فيرينا العالَم المتعدد الألوان والأشكال.

وتعطي الإشعاعات الصادرة من الشمس الحرارة عندما تلامس الأرض، وبذلك تؤمن الحرارة اللازمة لسائر المخلوقات.

وتنظيم كافة المخلوقات مرتبط بهذه المعادلة؛ فعندما تلامس هذه الحرارة الأوراق، تؤمِّن نموها واخضرارها، وعندما تلامس البحر فإنها تبخِّر ماءه بالمقدار اللازم لعملية الإمطار...

والشمس تجري بسرعة هائلة، حيث تبلغ سرعتها سبعمئة وعشرين ألف كيلو متر في الساعة. فإلى أين تسير؟ الله أعلم!

تُعد الشمس نجماً في مجرة درب التبانة من بين النجوم الكثيرة التي يقدَّر عددها بأكثر من مئتي مليار نجمة. وهذه النجوم مثل الشمس مظاهرُ

إن الشمس تجري بسرعة هائلة، حيث تبلغ سرعتها سبعمئة وعشرين ألف كيلو متر في الساعة. فإلى أين تسير؟ الله أعلم!
وتُعد الشمس نجماً في مجرة درب التبانة من بين النجوم الكثيرة التي يقدَّر عددها بأكثر من مئتي مليار نجمة. وهذه النجوم مثل الشمس مظاهرُ للقدرة الإلهية، إنها معجزة وقدرة خلق وإبداع لا حدود لها ولا مثيل.

للقدرة الإلهية، إنها معجزة وقدرة خلق وإبداع لا حدود لها ولا مثيل! والله تبارك وتعالى يورد لنا في القرآن الكريم مثالاً لمعلومات بهذا الشأن لم تُكتشَف إلى اليوم، فيقول:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٦)

فلا نستطيع أن ندرك ونفهم صنع الله تعالى العظيم إلا في إطار ضيق وبسيط. فنقول مثلاً إن الأسماك تعيش في البحر، ولكن التنظيم الإلهي قد جعل داخل البحر حواجزاً وحجباً كثيرة غير مرئية، فلا تنزل الأسماك التي تعيش في الطبقات العليا إلى الطبقات السفلى، ولا تنزل تلك التي تعيش في الوسط إلى الطبقات التي أسفل منها، أو إلى الأعماق. والأسماك التي تعيش في الأعماق لا تخرج إلى الطبقات العليا، فكل صنف من الأصناف يتابع حياته ضمن تلك الطبقات غير المرئية.

وهناك أسماك ومخلوقات بحرية أخرى تعيش في أعماق البحر التي لا تصل إليها أشعة الشمس، فالله سبحانه وتعالى قد زودها بعيون ومجسّات مختلفة. ويوجد لدى الخفافيش وكثير من المخلوقات الأخرى نظام استشعار دقيق اكتشفه الإنسان حديثاً وأخذ يحاكيه في الرادارات.

فلدى كل صنف من أصناف المخلوقات نمط حياة، وتكاثر، ونمو، وعمر خاص به. ونضرب هنا مثلاً حيوانَ الكنغر، حيث أن نمط حمل أنثى

ذات يوم ذهب ثور إلى بغداد، وتجول في المدينة من أولها إلى آخرها، حيث سار على أطراف نهر دجلة المليئة بمناظر الطبيعة الخلابة، إلا أن عينه لم تستطع أن تبصر أياً من هذه المناظر الجميلة التي تأخذ بالألباب، فعينه لم ترَ إلا الخضار المرمية على المزابل وأطراف الطرقات، فكان حاله تماماً كحال الغافل عن تجليات العظمة الإلهية في هذا الكون الفسيح.



هذا الحيوان ونظام إرضاعها لصغارها مليء بالمميزات المختلفة تماماً، فالأنثى تلد بعد مدة حمل قصيرة تمتد من ٣٠ – ٤٠ يوماً، ويدخل المولود في جراب الأم، ويمضي فيه تسعة أشهر أخرى متغذياً من حليب أمه، وهذا الحليب يتم إفرازه وفقاً لاحتياجات الصغير. ففي البدايات يكون خفيفاً وصافياً مثل الماء، ثم في الشهور اللاحقة يغدو ذا كثافة وتزداد فيه نسبة الدسم. وإضافة إلى ذلك فإن الكنغر الأم تستطيع الحمل والولادة مرة أخرى وهي تربي صغيرها من الولادة الأولى، لذلك يتم تنظيم فرز الحليب في جسمها بشكل مستقل يلائم الصغير السابق والجديد معاً، وكأن هذا الحليب يُدَرُّ من مصادر مختلفة. وإذا ولدت للمرة الثالثة فإن الحليب يُفرز إلى ثلاثة أصناف مختلفة، ويُدرُّ من ثلاثة أثداء.

فما أعظمه من مشهد! وما أجمله من دليل على القدرة الإلهية العظيمة!. فكل ذلك من تجليات عظمة الله تعالى...

ثمة كثير من أنواع العيون... فلدى الثعابين عيون حرارية قد تم تقليدها في عدسات بعض الكاميرات الحرارية، إذ تعثر على فريستها في الظلام من خلال تحسس حرارة الجسم.

وهناك كثير من الحشرات التي تمتلك نوعاً من العيون يكون فيها مئات بل آلاف من الخلايا الشبيهة بخلايا العسل.

يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه:
"وليخشَ عبدٌ أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيراً، وقد يكفي الحكيمَ جوامع الكلم، والأصم يُنادَى من مكان بعيد".

إن كل شيءٍ في الكون يقرُّ ويعترف ببديع صنع الله تعالى، ويقول:

﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (النحل: ٨٨)

يقول ضياء باشا:

سبحان الذي تحير في صنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجِز الفحول

لقد خُلقت الأرض بتضاريسها الجغرافية المختلفة من وديان، وسهول، وجبال بصورة تلائم حياة الإنسان. فقد خلقت فوق تلك النيران المتأججة الحدائقُ، والبساتين، والحقول، والمراعي، والمروج الخضراء. فالشجر نعمة، والظل نعمة، وحتى تلك الأعشاب والحشائش المتناثرة في الطبيعة التي لا نرى لها قيمة تذكر تُعد أعظم نعمة، إذ إنها تغذي الحيوانات التي نقتات على لحومها وألبانها... إنه نظام عظيم وعجيب، وتوازن دقيق لا يسري إليه الخلل أبداً...

فكل شيءٍ من الأشياء المذكورة نعمةٌ مستقلةٌ، وكل منها يحمل الإنسان على التفكر في الخالق ﷻ؛ إنها مشاهد وتجليات للعظمة الإلهية التي تقشعر منها الأبدان، وتقود الإنسان للسعي بأقصى طاقته من أجل أداء واجب الشكر للخالق سبحانه وتعالى.

تهطل الأمطار، وتتساقط الثلوج، فتتجمع المياه، ثم تأتي شمس الصيف الحارة فتُبخِّر جزءًا من تلك المياه وترفعه إلى السماء. ثم تتحرك المياه المتبخرة والتي ربما يبلغ حجمها حجم مياه البحر الأبيض المتوسط في السماء وتنزل على شكل أمطار في أماكن يختارها ويقدِّرها الله تعالى. فالماء الذي يكرِّر دورته منذ أن خلق الله الدنيا هو الماء ذاته.



لقوم يتفكرون

يدأب الإنسان على آلية عمل النظام الكوني، لأنه يعيش منذ لحظة ولادته في هذا النظام الدقيق الذي لا يسري إليه أدنى خلل أو شذوذ.

عندما تقلع طائرة من المطار تُوجَّه إرشادات إلى الركاب من الطاقم المسؤول، فيُقَال لهم: "في حال تعرض الطائرة لنقص الأوكسجين سوف تنزل الكمامات من فوقكم، وتعمل أسطوانات الأوكسجين. وعليكم استخدامها بهذه الطريقة..."

ولكن لا أحد من الناس يتساءل قلِقاً فيقول مثلاً: يا تُرى هل سينخفض في الغد مستوى الأوكسجين. ولا نشعر بالخوف من عدم حلول الصباح، أو عدم شروق الشمس، أو عدم قدوم الربيع. إلا أن الذين يتفكرون يدركون النظام العظيم الذي يكمن في هذه الأمور، ولهذا فإن الحق سبحانه وتعالى يقول في كثير من الآيات القرآنية:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١؛ الجاثية: ١٣)

أي إن الحِكم تتجلى للذين يتفكرون ويتأملون بآلاء الله تعالى. ولا شك أن هذا الأمر يكون وفقاً لمستوى القلب، إذ إن القلوب التي تتبع خطوات الشيطان، أي الغارقة بالذنوب والمعاصي تكون عمياء وصماء أمام هذه التجليات الإلهية. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى:

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"تقربْ من الله تعالى وطهِّرْ ذاتك من الأدران النفسية كما يتبخر الماء ويُنقَّى في السماء. فبخِّر أحوالك النفسية، واقضِ عليها، ونل نصيباً من سرِّ أحسن تقويم".

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠)

وذلك لأن الكافرين ما هم إلا جثث حية.

تطهَّر أنت أيضاً في السماء!

فدعونا نتفكر ونتأمل بالماء الذي لا يمكننا الاستغناء عنه في حياتنا:

تهطل الأمطار، وتتساقط الثلوج، فتتجمع المياه، ثم تأتي شمس الصيف الحارة فتُبخِّر جزءاً من تلك المياه وترفعه إلى السماء. ثم تتحرك المياه المتبخرة والتي ربما تبلغ كميتها كمية مياه البحر الأبيض المتوسط في السماء وتنزل على شكل أمطار في أماكن يختارها ويقدِّرها الله تعالى. فالماء الذي يكرِّر دورته منذ أن خلق الله الدنيا هو الماء ذاته، حيث يصبح غذاءً للنباتات، ويتجول في أجسام الناس وسائر المخلوقات الأخرى. إنه يتعكر ويختلط بالأوساخ، ويُخلط بالتراب فيصبح طيناً، ثم يتبخر، ويُنقَّى من كل الشوائب، وينزل مرة أخرى رحمةً على الأرض على صورة أمطار صافية. ولو أردنا كتابة المغامرات التي يخوضها كأس من الماء فلن تتسع لها المئات من المجلدات.

ويبيِّن مولانا جلال الدين الرومي هذه الحادثة بحكمة، إذ يجعل الماء يقول بلسان حاله:

إن السماء تقدِّم سراً من الأسرار الإلهية العميقة التي تخطف الأبصار مثل مصباح متوهج... والرياح رسلُ الغيب... ولمعات البرق شراراتُ الخوف والأمل... والرعد والصواعق قرارات من الواحد القهار، وقذائفُ توقظ من الغفلة...



"إن الماء مثلنا يضيق ذرعاً، ويصيبه القلق والاضطراب عندما يفقد صفاءه، وبريقه، وتختلط به أوساخ الأرض، ثم يبدأ بالابتهال والتضرع بكل إخلاص إلى الله تعالى، فيقول:

"يا رب، لقد وزَّعت عليهم كل ما أعطيتني إياه، والآن بقيتُ فقيراً مسكيناً. لقد صببتُ بضاعتي، وكل شيءٍ تحت يدي على ما هو نظيف، وما هو متسخ أيضاً... فيا رب! يا من تهب بضاعتي، أكرمني بالمزيد".

وبناءً على هذه الابتهالات والتوسلات يصدر الله ﷻ قراره للغيوم قائلاً:

"خذيه واحمليه إلى مكان جميل دون أن تقسي عليه". وللشمس: "ارفعيه في الحال بحرارتك إلى السماء!".

وبعد أن تبخره الشمس وترفعه إلى السماء، ويُنقى ويتطهر هناك، ينزل مرة أخرى إلى الأرض أحياناً على شكل أمطار، وأحياناً على شكل ثلوج، وأحياناً على شكل بَرَد. وفي النهاية يصل إلى البحر الذي لا حدود له".

يقول مولانا الذي ينقل لنا هذه الحادثة الطبيعية التي نشهدها في كل سنة، للإنسان معبِّراً عن الحكمة الكامنة فيها:

"أنت أيضاً أيها الإنسان، تقرَّب من الله تعالى وطهِّرْ ذاتك من سائر الأدران النفسية كما يتبخر الماء ويُنقَّى في السماء. فبخِّر أحوالك النفسية، واقضِ عليها، ونلْ نصيباً من سر أحسن تقويم!".

إذا ألقيت نظرة إلى هذه الدنيا، فسترى:
أن كل شجرة وأوراقها ترفع أيدي التضرع متوسلة إلى ربها. والمروج كأنها جعلت من نفسها سجادة صلاة لجماعة المصلين، والأزهار والورود التي تغطيها تتماوج بشوق كأمة سعيدة. وترى الجبال التي هي علامات القدرة الإلهية كأنها قائمة بين يدي ربها.

أي إنه يقول:

"يُوصَف المطرُ بالرحمة لطهارته ونظافته، وبركته، فكن أنت أيضاً الإنسانَ الذي تفيض روحه بالطمأنينة، والسلام، والبركة!".

ومن الخوارق والعجائب خلقُ الحليب وفرزه من بين الفرث والدم.

وكذلك العسل الذي فيه شفاء للناس والذي تنتجه النحلات التي لا تتجاوز أعمارها الشهر والنصف داخل الخلايا التي تُعد معجزة هندسية؛ وهذا العسل الذي يعجز عن صنعه حتى أمهر الكيميائيين يُعدُّ معجزة فريدة من نوعها.

ويكفي لتأمل الإنسان النظرُ إلى ما يأكله ويشربه، إذ يقول الله ﷻ:

﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ**﴾ (عبس: ٢٤)

لا شك أن هذه النظرة نظرة الاعتبار والتفكر والتأمل، فإذا لم ينظر الإنسان إلى الكون بقلب مؤمن سليم، تُصبح نظرته سطحية وعبثية، ونظرة غفلة.

وقد شبَّه الله ﷻ الذين لا يستعملون ما أكرمهم به بالحيوانات إذ قال:

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ (محمد: ١٢)

وفي آية أخرى وصف الله تبارك وتعالى الكافرين الذين يبتعدون عن التفكير والتأمل بأنهم أضل من الحيوانات.

شبَّه الله ﷻ الذين لا يستعملون ما أكرمهم به بالحيوانات إذ قال:

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ (محمد: ١٢)

لأن الحيوانات تعيش بحالة تسبيح لله تعالى وفقاً للغريزة التي جُبلت عليها، وقُيِّدت بها. ولا ضير عليها لأنها لم تُعطَ العقل.

إن الحيوانات مخلوقة من أجل فائدة الإنسان وتفكره وتأمله، ومن أجل أن نشاهد تجليات اسمَي الله تعالى البارئ (الخالق الذي لا مثيل لخلقه) والمصوِّر (الذي يجعل صنعه وخلقه بأكمل صورة). ويشير الحق سبحانه وتعالى في الآيات القرآنية إلى التنوع الشكلي واللوني المتجسِّد في الجمادات، والنباتات، والحيوانات، والإنسان، فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨)

لقد جعل الله تعالى المخلوقات مختلفة الأشكال والألوان، وكذلك جعل غذاءها مختلفاً. وأوجد في كل نوع من المخلوقات آليات مختلفة لتأمين طعامها، والإمساك بطرائدها، والدفاع عن أنفسها؛ فثمة حيوانات مزوَّدة بالقرون، ومنها بالأنياب، ومنها بالسموم، ومنها بحيلة التمويه.

ومن الأمور الفياضة بالأسرار الإلهية غريزة المحافظة على النسل الموجود لدى المخلوقات الحية.

ينبغي للمؤمن أن يرتقي بقلبه بطاعته المستمرة للأوامر الإلهية المتمثلة بقوله:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)

فسمكة السلمون مثلاً تقوم برحلة تمتد لمسافة كيلومترات عديدة، وتسلك خلالها طريقاً بعكس اتجاه تدفق المياه، ثم تضع بيوضها في أنسب مكان لصنفها. وتأتي الصغار التي تخرج من تلك البيوض إلى الدنيا مزودة بنظام الحياة... وكذلك فإن تلك الأسماك تحمل الرزق والحياة إلى الغابات التي اتجهت إليها. فالحياة كلها قائمة على توازن طبيعي بغاية الدقة والعظمة... يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: ٢٤-٣٢)

إن كل هذه النعم أدوات للتفكر والشكر ممنوحةٌ للإنسان من أجل إدراك وظيفته الأصلية في الحياة.

من الفاني إلى الباقي

لأن الإنسان وهذه الدنيا كلاهما فانيان.

فالإنسان سوف يودع هذه الدنيا ويدخل في رحلة تبدأ بالموت.

والإنسان بطبعه يخاف من الموت، ولا يريد الموت، ولكن لا مفر منه. فينبغي للإنسان أن يصغي إلى الخطاب الإلهي: **﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾** (الذاريات: ٥٠) ويقبل بالرحمة الإلهية ملجأً وحيداً له.

> يخاف الإنسان من الموت، ولا يريد الفناء، ولكن لا مفرَّ منه. لذلك ينبغي للإنسان أن يصغي إلى الخطاب الإلهي: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات: ٥٠)
> ويقبل بالرحمة الإلهية ملجأً وحيداً له.



إن الله ﷻ يبشِّر في لحظات الموت والمراحل التي تليها الذين يفرون ويلجؤون إليه، ويعيشون حياتهم على الاستقامة والتقوى، إذ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)

ويتجلى عون الملائكة للإنسان في ثلاثة مواضع هي:

- أثناء لحظات الموت وخروج الروح.
- في القبر.
- وعند البعث يوم القيامة.

وقد ورد عن بعض المفسرين:

"أن الملائكة تتنزل على أهل الاستقامة وهم في الحياة الدنيا فيمدونهم فيما يحصل لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام".

يجب أن يكون لدى الإنسان انشراح وسعة صدر كبيرة من أجل التفكر الذي هو مفتاح الإيمان. فالتفكر بالمخلوقات ينبغي أن يوقظ في الإنسان إحساساً عميقاً، وإلا فإن الإنسان يهوي إلى دركات الغفلة والضلالة أكثر من الحيوانات ذاتها. وهذا يحمل الإنسان إلى التأمل والتفكير بمدى توكل الحيوانات على الحق ﷻ.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

(فصلت: ٣٠)

فمن معلوم أنه لم يثبت إلى اليوم أن طائراً أقدم على بناء عدد من الأعشاش أكثر من جيرانه، ولم نجد ثعلباً حزيناً لأن جحره الذي يختبئ فيه ذو فتحة واحدة. ولم نصادف سنجاباً مات من القلق والتوتر لأنه لم يستطع جمع الجوز بكمية تكفيه لفصلي شتاء بدلاً من فصل واحد، ولم نرَ كلباً أمضى لياليه بلا نوم هماً وكدراً لأنه لم يجمع من العظام ما يكفيه لسنوات شيخوخته.

عمى الغفلة

نلاحظ في عصرنا هذا أن هناك تقدماً تقنياً وتكنولوجياً، ولكن في الوقت نفسه هناك تراجع في التفكر والتأمل. فالملحدون اليوم يعتقدون بأنهم فسَّروا كل شيءٍ في الكون من خلال شروح وبيانات سطحية وبسيطة باسم العلم، ثم يستهزئون بأفكار المسلمين.

والحق أن محاولة تفسير تجليات العظمة الإلهية بالمصادفة والاصطفاء الطبيعي، والتطور والارتقاء بعيداً عن الإيمان والتقوى ليست إلا استعمالاً للعقل بحماقة ما بعدها حماقة، إنها سجن ومصادرة للعقل.

ويصوِّر الله تبارك وتعالى هذا الشذوذ والوهم السفيه، ويذمه في القرآن الكريم، إذ يقول:

يدعو الحقُّ سبحانه وتعالى الإنسانَ في مئة وسبعة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم إلى التفكر في دلائل القدرة، وتجليات العظمة الإلهية المبثوثة في كل ذرة في الكون.



﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: ٥٠)

لا يمكن تفسير إنكار هؤلاء للخالق على الرغم من تقلبهم في النعم واستفادتهم منها، ومشاهدتهم للكون وخوارقه، والتأمل فيها، إلا بعمى قلوبهم. وقد بيَّن الله ﷻ هذه الحقيقة في القرآن الكريم، إذ قال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)

وكما أن الله ﷻ وصفَ الذين لا يُبصِرون الحقائق بصفة "عمى القلب"، فقد وصف الذين يمتنعون عن الاستجابة لدعوة الحق بصفة "الموت المعنوي"، فيقول:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢)

وينبغي للمؤمنين ألا يفارق قلوبهم التفكر، ولا تنقطع ألسنتهم عن الذكر، وأن تصطبغ كافة أحوالهم بالتقوى، لكيلا يتعرضوا لهذه العاقبة المظلمة.

ينادي نجيب فاضل أهل الغفلة فيقول:
أينما نظرتُ أجدُ نفسي مُحاطَاً من كل جانب، أيُعقَل أن يكون المرء مُحاطاً ولا يكون من مُحيطٍ به؟
أما تنظر إلى المرآة وتتساءل، من هذا الفنان المبدع الذي رسم هذا الوجه؟

وينبغي للمؤمن ألا يغفل عن آلاء الله تعالى المحيطة به من كل جانب، فالإنسان الذي يعاني من فقدان حاسة النظر منذ ولادته ثم يعود إليه البصر فجأة بعد سنوات يُصاب بدهشة شديدة، إذ ينظر حوله إلى البحار، والأشجار، والطيور المحلقة في السماء فتزداد حيرته ودهشته، ويقول عن الأشياء التي لم يرها من قبل أبداً: "ما أعظم خلق ربي!"، ويشعر بالإعجاب والمحبة تجاه خالقه.

والإنسان الذي يصادف كل يوم الآلاف من مظاهر الجمال والنعم المسبوغة عليه فلا يتنبه إليها، ولا يجد طريق التفكر العميق فيها، تكون حاله كحال الصحارى والصخور القاسية التي لا تنال تؤثر فيها أمطار نيسان المباركة على الرغم من هطولها وجريانها من فوقها؛ فيمر ذلك الإنسان أمام تلك الآيات الإلهية بغفلة دون أن يستفيد منها.

عندما يقوم رسام مشهور برسم بعض المشاهد والمناظر من الطبيعة التي خلقها الله تعالى في هذا العالم على لوحات فنية، نجد أن مَعارِضَاً قد افتتحت من أجل عرض تلك اللوحات على الناس، ونرى الناس يتهافتون إلى تلك الأماكن لرؤيتها وتُدفع ثروات طائلة لاقتنائها.

وأما الرسام فيُنظَر إليه بعين التقدير والتبجيل، إذ يُقال: "حقاً إنه لفنان عظيم!". والحق أن الصانع الحقيقي إنما هو الصانع المطلق الذي خلق

لم يثبت إلى اليوم أن طائراً أقدم على بناء عدد من الأعشاش أكثر من جيرانه، ولم نجد ثعلباً حزيناً لأن جحره الذي يختبئ فيه ذو فتحة واحدة.



الرسام، وخلق المناظر الطبيعية التي ينظر إليها الرسام ويرسمها على لوحته؛ إن الصانع الحقيقي هو خالقنا ﷻ الذي خلق الإنسان.

لا يستطيع الإنسان الغافل أن يشعر بالتقدير الذي يشعر به أمام لوحة رسام عندما يكون أمام صنع الصانع المطلق الذي خلق كل شيءٍ.

وأما القلوب العارفة فإنها تنظر إلى اللوحات الحقيقية التي هي أثر لفرشاة القدرة الإلهية والتي تتغير ببطء كل ثانية خلال أربع وعشرين ساعة، فلا تفقد إعجابها ودهشتها تجاهها. إذا ما نظر الإنسان إلى الألوان عند الغسق والشفق... وإلى أزهار البنفسج والجوري والزنبق التي تزين الأرض بمختلف الألوان... وإلى البحار، والأنهار، والجبال، والوديان... أي إذا ما نظر إلى نفسه وإلى الكون بعين المحبة، فلن يكون له مناص من الانبهار والإعجاب، والاندهاش بالهيبة والخوارق والمعجزات الإلهية.

ينادي نجيب فاضل أهل الغفلة قائلاً:

أينما نظرتُ أجد نفسي محاطاً من كل جانب،

أيُعقَل أن يكون المرء مُحاطاً ولا يكون من مُحيطٍ به؟

أما تنظر إلى المرآة وتتساءل،

من هذا الفنان المبدع الذي رسم هذا الوجه؟

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في هذا الشأن داعياً إلى يقظة الأعين والقلوب بالبحث عن أبواب التفكر والحكمة:

لم نصادف إلى يومنا هذا سنجاباً مات من القلق والتوتر لأنه لم يستطع جمع الجوز بكمية تكفيه لفصلَي شتاء بدلاً من فصل واحد، ولم نرَ كلباً أمضى لياليه بلا نوم هماً وكدراً لأنه لم يجمع من العظام ما يكفيه لسنوات شيخوخته.فيا أيها الإنسان، انظر حولك واخرج من غفلتك، ولا تنخدعنَّ بلعب الأطفال!.

"ما دمتَ ترى حركة حجر الرحى، فأمعن النظر في ماء الجدول الذي يبث الحركة فيه! وإذا رأيت الغبار يتصاعد إلى السماء فانظر إلى الرياح التي تذروه!"

"إنك ترى وعاء الفكر يغلي، فانظر بعين قلبك إلى النار التي تغلي من تحته!"

"يا أيها المغفل، هل المعقول أن يكون لهذه القصور والصروح والمنازل بانٍ، أم المعقول أن لا يكون لها بانٍ!"

"يا بني، هل المعقول أن يكون للكتابة التي تراها كاتب، أم أن المعقول أن تكون هذه النقوش التي تزين الجدران والكتابات التي تملأ سطور الصفحات من غير كاتب!"

"أيها الإنسان، هل تستطيع أن ترينا شيئاً في هذا العالَم قد وُجد بنفسه ومن تلقاء ذاته؟ إذاً انزعْ نبتةً غُرسَت ونمت بنفسها من الأرض وانظر هل انتهت بنفسها!"

إن التفكر ليس ذا جانب واحد، فهو لا يقتصر على إدراك وجود خالق، وإنما له جوانب متعددة ومختلفة، فدعونا نتأمل ونفكر:

إن كل شيءٍ في الكون في حال نشاط مستمر، فكل شيءٍ ابتداءً من الذرة وانتهاء بالمجرة بحال سعي وحركة.

إنها لوضاعة وسفالة ما بعدها من سفالة أن يسعى الإنسان لحجب عظمة الله عن أعين الناس بالإقدام على استخدام النعم الجليلة التي أكرمَه الله بها وخصَّه بها دون سائر المخلوقات مثل نعمة العقل، والإدراك، والبيان.



كل شيءٍ نشِطْ

إذا نظرنا إلى الذرة، نجد أن الإلكترونات بحالة دوران مستمر حول نواتها.

وتسير الإلكترونات التي تدور حول نواة ذرة من الهيدروجين بسرعة ألفي كيلومتر في الثانية.

ولنتأمل في عالم المجرات: إن كل واحدة من المجرات، والنجوم، والكواكب، والأقمار تسير سابحة في فلك خاص بها، وهي في حال سعي وجريان ودوران مستمر.

ويأمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نعيش حال السعي والدوران هذه من خلال الطواف حول بيته العتيق في مواسم الحج والعمرة.

إن قلوبنا لا تتوقف أبداً عن النبض في أجسامنا، وعملية التنفس، وجريان الدم في العروق والشرايين، وتجدد الخلايا في حال عمل متواصل حتى أثناء النوم...

فقلوبنا لا تطلب إجازة سنوية، والشمس لا تخلد إلى الراحة ليوم أو يومين في الأسبوع أو الشهر.

وكل هذه الأمور رسائل لنا من أجل العبادة والسعي والعمل وتأكيد عليها.

طالما أنهم يدعون بأن الإنسان إنما ظهر نتيجة للتطور والارتقاء، فليأتوا بأقرب تلك القردة شبهاً بالإنسان، وليلقحوه بالهرمونات والجينات الإنسانية من خلال أحدث الوسائل الطبية التي توصل إليها العلم وطورها حتى يومنا هذا، ليحولوا القرد إلى إنسان إن استطاعوا! هل هذا ممكن؟

لأن الله ﷻ وجَّه الكون والإنسان بالقوانين والسنن الإلهية، وقد جاءت هذه الحقيقة في القرآن الكريم، إذ يقول الله ﷻ:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن: ٧-٨)

وهذا يعني بأنه ينبغي للإنسان أن يتماشى مع التوازن الإلهي السائد في الكون، فكما أن السعي والحركة المستمرة هي الأساس في هذا الكون الواسع، كذلك فإن العبودية النشطة والفعالة بصورة مستمرة ينبغي أن تكون الأساس في حياة المؤمن.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ٧-٨)

كانت حياة النبي عليه الصلاة والسلام تطبيقاً تاماً لهذه الآية الكريمة، إذ كان يومه دائماً فياضاً بالعبادة الفردية، والنشاطات الأسرية والاجتماعية.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه الذي تعلم وتربى في مدرسة النبي:

"إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دنيا ولا آخرة".

ويقول محمد بن علي رحمه الله:

"إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كل شر. إنك إن كسلت لم تؤدِّ حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق".

والمحبة تؤدي إلى الحيوية، وتلك الحيوية تجلب التضحية، لذلك حيثما وُجِدَت المحبة انتفى التعب والتكاسل.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه:
"إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دنيا ولا آخرة".



ولا يستطيع الإنسان نيل الاستراحة إلا في القبر عقب موت هادئ مطمئن يحظى به في نهاية عمر مليء بالعمل والسعي والبركة.

إن الأمر الآخر الذي تبلغ أهميته أهمية العمل والسعي الدؤوب هو الابتعاد عن السفاهة في الأقوال والأفعال التي لا طائل منها، والإعراض عن اللغو. وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من بين صفات المؤمنين المفلحين، إذ جاء في الآية القرآنية:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٣)

فينبغي للإنسان التفكر، لأن كل زاوية من زوايا الكون مادة للتفكر... والمخلوقات التي تدب على الأرض مادة للتفكر... وآثار الأقوام السابقين مادة للتفكر...

وكذلك عالم الجراثيم التي لا يمكن رؤيته إلا بالمجهر مادة للتفكر، وعالم الفضاء الذي لا يمكن رؤية إلا جزء منه بالمِقرَاب مادة للتفكر... فكل شيءٍ في الكون يحمل الإنسان على قول:

سبحان من تحير في صنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجِز الفحول

ومن أحد الجوانب العظيمة لصنع الحق سبحانه وتعالى هو الإبداع وروعة الخلق التي تظهر سواء في أصغر العوالم المتمثل بعالم الذرة، أو بأكبر العوالم المتمثل بعالم المجرات والنجوم.

يقول محمد بن علي رحمه الله:
"إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كل شر.
إنك إن كسلت لم تؤد حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق".

ففي داخل الذرة التي تُشاهَد بالمجهر نواةٌ وعدد من الإلكترونات التي تدور حولها بسرعة هائلة.

وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر، نشاهد نجمةً مثل الشمس وعدداً من الأجرام السماوية التي تدور حولها.

فنجد روعة الخلق في الكون الصغير وفي الكون الكبير...

يمكن للذين يقومون بتشريح فيل مثلاً أن يعثروا على خرطوم طويل ومخ يتولى إدارته. ولكن عندما يقومون بتشريح حشرة صغيرة مثل البعوضة ويدققون فيها، سوف يعثرون أيضاً على خرطوم ومخ عجيب؛ فعندها ستدرك العقول مدى عظمة خلق الله.

وهناك كائن أعجب وأصغر من البعوضة لا يُرى بالعين المجردة ألا وهو الجرثومة، وهذا الكائن يستطيع أن يصرع أشد الأبطال بالمرض الذي يسببه، وهو كائن ضعيف وصغير لا يرى إلا تحت عدسات المجهر.

لقد سُمِّي هذا العالم المليء بلوحات التفكر والتأمل التي يعجز الإنسان عن عدِّها بـ"كتاب الكون".

وهذا القرآن الكريم المليء بالآيات التي أنزلها الحق سبحانه وتعالى على قلب سيدنا محمد ﷺ يفيض بالإشارات، والمعجزات، والآيات الجديرة بالتأمل والتفكر والتي سردنا بعض الأمثلة عنها.

يقول أهل الله:

"إن الله تعالى ظاهر حتى إنه يغيب لشدة ظهوره".



إن الإنسان الكامل يشاهد العوالم بعين رُفِعَت عنها الحُجب وبلغت مرحلة التقوى، أي يشاهدها بعيون قلبه، ويبدأ بتقليب صفحات الكون المليئة بالحكمة وقراءتها؛ وأما الغافل المسكين والتعيس فإنه يضع أصابعه أمام عينيه ولا يستطيع رؤية أي شيءٍ.

ويُعَدُّ كلٌّ من الإنسان والعالَم مرآةً للآخر، والعالَم والقرآن أيضاً يُعَدَّان كالتوأم، فكلٌّ منهما يساهم في تفسير الآخر، وكل منهما يُعد وسيلة لقطع المراحل في سبيل بلوغ "معرفة الله".

تدبُّر القرآن

إن القرآن الكريم معجزة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ والباقية إلى يوم القيامة. وجميع الكتب السماوية السابقة قد تعرضت للتحريف على يد البشر، أما القرآن فقد حُفِظَ من التحريف والتلاعب برعاية الله تعالى.

لقد كانت العلامة الفارقة التي تميز المجتمع الذي بُعث إليهم النبي ﷺ هي الشعر والأدب. إذ كانت تُنظَّم الأسواق والمعارض للشعر والأدب وتُجرَى فيها المسابقات، ثم تُعلَّق القصائد والأبيات الشعرية الفائزة في المسابقة على جدران الكعبة. وكان هذا الأمر بالأساس دافعاً إلهياً خفياً من أجل تحسين مستوى هذه اللغة التي ستكون في خدمة القرآن الكريم مستقبلاً.

يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:
"لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها".

ولما نزل القرآن الكريم وتُليَت آياته على الناس، التزم فحول شعراء ذلك العصر والخطباء البلغاء الصمتَ. ذلك أن القرآن تحداهم علناً، وضيَّقَ على المعارضين، وكأنه قال لهم: إن كنتم تظنون أن القرآن كلام بشر فأتوا بمثله. ففي البداية كان التحدي أن يأتوا بمثل القرآن، إذ قال الله ﷻ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٣-٣٤)

ثم سهَّل الله ﷻ التحدي عليهم، إذ تحداهم بأن يأتوا بعشرة سور، وأذِنَ بالاستعانة بمن يشاؤون، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣)

فلم يستطع أحد الرد على هذا التحدي. فأعاد الله تعالى الدعوة، وجعل التحدي هذه المرة سورة واحدة، إذ قال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨)

إن مَثَل "القلب والعقل" - مركزَي الفكر والإحساس - في جسم الإنسان كمثَل الحوض. يقول المفكِّر نجيب فاضل:

"إن الذي يملأ هذا الحوض ميزابَان، أحدهما يصب النور، والآخر يصب القاذورات".



ولما لم يستطع أحد من الذين يعيشون في العصر الذهبي للبلاغة الردَّ على هذا التحدي الذي يقرع آذانهم صباح مساء، أعلن الله ﷻ وبشكل قطعي عجزَ الجن والإنسان مجتمعين عن الإتيان بمثله وإن ظاهر بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، إذ قال:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:: ٨٨)

وبذلك انتهت المسابقات الشعرية، وأزيلت الأشعار المعلقة على جدران الكعبة، وذلك لأن القرآن الكريم قد جاء وأثبت وجوده وتفوقه ببلاغته وفصاحته، وجعل الجميع يُعجَبون به.

يُعد القرآن الكريم معجزةَ المعجزات بأسلوبه الرائع، وبعظمة نظمه، وغنى معانيه، وبفصاحته وبلاغته الفريدة، وبمضمونه الواسع الذي يحتوي على العلاج الشافي والكافي لسائر العلل والمشاكل التي يعاني منها الإنسان الفرد والمجتمع وذلك على المستوى الأسري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وبإخباره عن الغيب وعن الماضي، وبحديثه قبل قرون عديدة عن الحقائق العلمية والكونية التي لا يكتشفها الإنسان اليوم إلا بجهد.

والقرآن الكريم يعين في فهم غاية خلق الكون والإنسان، وينظِّم الحياة الممتدة من المهد إلى اللحد. وهو منظومة من القوانين، والأحكام،

إذا استمر في قلوبنا تدفق الرغبات والشهوات النفسية، والفسق والفجور، وغفلة الانجرار إلى المحرمات والخبائث، فإن قلوبنا تتحول إلى ما يشبه مكبَّ النفايات. ولكن إن أصبحت قلوبنا مجرى لفيوضات القرآن والسنة، فإنها تتحول إلى بحر من الحكمة.

والمبادئ التي تحقق للإنسان السلام والطمأنينة في الدنيا، وتجهزه للسعادة الأبدية في الآخرة.

والقرآن الكريم يحتوي حقائق وأسرار يمكن للبشر الأخذ منها إلى يوم القيامة.

وثمة تباين في إدراك الكون والحوادث في مرآة القلب، فدرجة تطهير مرآة القلب من أدران الذنوب والمحرمات، وصقلها بالإيمان والتقوى والإخلاص تنعكس على التجليات التي تبدو فيها.

من أسماء القرآن الكريم "الذكر". والإنسان بطبعه ينسى الوعد الذي قطعه لربه على نفسه في عالم الأرواح، وينسى إيابه مجدداً إلى ربه، وينسى الآخرة، وينسى غاية خلقه، ورحمته، وضميره ووجدانه، وأخلاقه. فيأتي "الذكر" لينبِّهه ويذكِّره بكل ذلك، فالذكر كالمنبِّه للإنسان.

إن الإنسان عند تلاوته للقرآن الذي يُعد شيفرة خلقه ودليل حياته يتذكر إنسانيته، ويتفكر "بالمبدأ والمعاد"، أي يتفكر بغاية خلق هذا العالم ووجهته التي يسير إليها، ويبدأ بالتساؤل عن غده، وعما أعده لذلك الغد.

ويستطيع المؤمن تدبر آيات القرآن الكريم والتفكر بها وفقاً لنسبة التقوى في قلبه. فكل شخص من الأشخاص الجالسين أمام المصحف ذاته يمكنه الاستفادة من معاني القرآن الكريم والاغتراف من بحرها بدرجات متفاوتة.

إن تعامي أولئك الذين يسيحون بلا مبالاة في عالَم الامتحان الذي يعيشون فيه سوف يتحول في الآخرة إلى عمى أبدي.



ولكن الذين أُقفلت قلوبهم لا يستطيعون الاستفادة من القرآن بأي شكل من الأشكال، إذ يقول الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)

والقرآن الكريم يدعو الإنسان دائماً إلى التدبر، والتعقل، والتفكير بالعظمة الإلهية، وبالعاقبة التي سيؤول إليها يوماً ما، وذلك بعبارات مختلفة:

أفلا تعقلون؟

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟﴾

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟﴾

يتبين من الآيات الكريمة المذكورة أن التفكر والتدبر من أكبر وأعظم مفاتيح الإيمان. ويوم القيامة يُذَكَّر الذين يستغيثون ويصرخون من الندم بالأمرين الآتيين:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٧)

ويومئذ يعترف أهل النار بالأمر الآتي:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠)

يقول الله ﷻ:

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾

(الإسراء: ٧٢)

إن القرآن الكريم يذكر الأسرار والحكم التي تُشاهَد في مدرسة الحياة والكون من خلال إيراد الأمثال والتصاوير البيانية:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٨٩)

ونجد التدبر في قلب الإنسان القارئ للقرآن الكريم والناظر بعين التأمل إلى مدرسة الحياة؛ وبذلك تتفتح أمامه آفاق "معرفة الله".

وعندما نتلو القرآن بتدبر فإننا نجد الحقائق الكونية الموجودة في بلاغة القرآن قبل أربعة عشر قرناً، والتي تقوي إيماننا، وتزيد من يقيننا.

معجزات القرآن

عندما كان الناس في ليالي القرن السابع الميلادي ينظرون إلى السماء كانوا يرون النجوم، إلا أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ماهيتها. فكانوا إما أن يجعلوا الأسماء التي يطلقونها على أشكالها وسيلةً للتنجيم، وإما أن يعتمدوا عليها لتحديد الاتجاهات في أسفارهم في الليل.

لكن الله تعالى يُقسِم في القرآن الكريم بالنجوم فيقول:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥-٧٦)

يقول نجيب فاضل محذِّراً من الخسران المتمثل بالغفلة عن الحقائق الإلهية:

دارت عقارب ساعتي ثلاثون حجة ولكني واقف

ألعب بالطائرات الورقية ولا علم لي بما في السماء



إن كلمة مواقع التي تعني مواضع والمذكورة في الآية تأتي أيضاً بمعنى منازل ومساقط. وأما اليوم فإن علماء الفيزياء والفلك يقولون بأن المقصود بمواقع النجوم هي الثقوب البيضاء التي تولد منها، والثقوب السوداء التي تموت وتتلاشى فيها. ولم يستطع البشر بعد اختراع المِرقَاب في القرن التاسع عشر والعشرين إلا توضيح شيء بسيط في معلوماتهم حول الفضاء.

ففي الفضاء ثقوب بيضاء وأخرى سوداء، وقد أقسم الحق ﷻ بهذه الثقوب التي اكتشفها العلم حديثاً. ألا تدل هذه الحقيقة التي لم يكتشفها العلم إلا في عصرنا الحديث أننا أمام عظمة تبعث على الحيرة والدهشة!

ويُطلَق على المكان الذي تُولَد فيه النجوم اسم الثقب الأبيض، وعلى المكان الذي تموت فيه اسم الثقب الأسود. ففي عملية ولادة النجمة يخرج جسم صغير من الثقوب البيضاء، ثم يكبر حجمه مليارات الأضعاف من خلال حركة توسع فجائي لتتشكل منه كتلة نجمية هائلة وعملاقة. وأما موت النجمة فيكون بدخولها إلى قلب الثقب الأسود. فالكثير من النجوم ذات الكتل العملاقة تفوق أحجامها حجمَ كرتنا الأرضية بآلاف الأضعاف بل ملايين الأضعاف؛ هذه النجوم تدخل عندما يحين أجلها إلى الثقوب السوداء فتموت وتدفن في مقبرة النجوم. وبناءً

إذا كان أي نظام تصادفي من عمل الإنسان لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة سليمة، وذات نفع وفائدة ومغزى؛ فكيف نصدِّق احتمالَ حصول المليارات من المصادفات المتتالية والصائبة في الطبيعة؟
إن هذا الاعتقاد مصادرةٌ للعقل!

على ذلك فإن الشمس التي تضيء سماءنا هي الأخرى سوف تشهد ذات يوم الحقيقة التي أخبر عنها القرآن الكريم:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير: ١)

لقد كان أغلب الفلاسفة المنكرون في الماضي يدَّعون أزلية الكون من خلال إطلاق العنان للعقل وتصوراته غير المستندة على المشاهدة والأدلة والبراهين الصحيحة. إلا أن الدراسات والأبحاث التي أجريت في العلوم الطبيعية جعلت المنكرين والقائلين بالأزلية يعترفون بوجود بداية للكون. ومن إحدى النظريات المتقدمة أن الكون بدأ بالتشكل من خلال عملية انفجار كبير عندما كانت المادة ما تزال في حالة غيوم غازية متحدة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق في القرن السابع الميلادي، إذ قال الله عز وجل:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (فصلت: ١١)

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

إن الاكتشاف الذي بيَّن أن تشكل الكون كان عن طريق عملية تمدد طاقة ما والتي بدأت عند نقطة معينة وأخذت بالتوسع (عن طريق الانفجار العظيم حسب النظرية) أصبح في القرن العشرين حقيقةً ثابتةً من خلال ما

العقل في واقع الأمر لا يمكن أن يأتي بالنفع والفائدة للإنسانية إلا في إطار وحي القرآن والسنة، ذلك أن العقل يُعد وسيلة مثل سكين قاطع ذي حدين، فيمكن استخدامه لتحقيق الضرر والنفع معاً.

حيث أن السكين الحاد يمكن أن يكون وسيلة لاستعادة صحة الإنسان وتحقيق الفائدة له إذا ما استُخدِم في إجراء عملية جراحية طبية، ويمكن أن يكون وسيلةً لإلحاق الضرر والأذى بالإنسان إذا ما استُخدِمَ في الجرائم.



تم رصده ومشاهدته بالمناظير الفضائية؛ هذه الحقيقة التي تقول بأن الكون لا يزال في حال تمدد وتوسع مستمر. والأجرام الكبيرة وفقاً لهذا القانون في حال تباعد بعضها عن بعض بشكل متناسب طردياً مع المسافات التي تفصل بينها. فمثلاً الجرم الذي يبعد عنا مسافة عشرة ملايين سنة ضوئية يبتعد عنا في الثانية بسرعة ٢٥٠ كيلو متراً، بينما تكون سرعة ابتعاد الجرم الذي يبعد عنا عشرة مليارات سنة ضوئية ٢٥٠٠٠٠ كيلو متراً في الثانية.

توسع الكون

يُشَار إلى هذه الحال في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)

فالحقيقة التي لم يطَّلع عليها إلا قلة من العلماء في القرن العشرين قد تحدث عنها القرآن الكريم قبل قرون عديدة. وهذا يعني: بأن القرآن يسير في الأمام، ولا يستطيع العلم إلا اتباعه.

فلنتابع التفكر والتأمل في الفضاء:

إننا نعيش بكل طمأنينة وأمان على هذه الأرض التي أُعِدَّت مثل الفِرَاش، بينما أطراف الأرض محفوفة بالمخاطر والمهالك، فكيف تتم حمايتنا وحفظنا من غالبية هذه المخاطر؟

معجزة القرآن الكريم هي أن:
القرآن يسير في الأمام، ولا يستطيع العلم إلا اتباعه.

السقف المحفوظ

إن النيازك تُعد أجزاء النجوم المنتهية أعمارها التي تتناثر في مختلف أنحاء السماء. ويقوم كوكبا المشتري وزحل بقوة جاذبيتهما الكبيرة بصدِّ كثير من هذه الأجسام التي تشكل خطراً عظيماً على الأرض. ويتولى القمر أيضاً سحبَ النيازك التي تتجاوز أحياناً هذين الكوكبين وتقترب من كوكبنا الأرض، ويصطدم كل نيزك من هذه النيازك المتساقطة بسطح القمر مباشرة لعدم وجود غلاف جوي. ويمكننا رؤية فوهات الحفر التي تحدثها اصطدامات هذه النيازك على سطح القمر حتى بمناظير صغيرة وبسيطة.

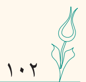
وأما النيازك التي تتجاوز القمر وتتجه نحو الأرض فإنها إذا كانت بأحجام صغيرة تبدأ بالاحتراق عند دخولها مجال الغلاف الجوي المحيط بالأرض بفعل عملية الاحتكاك بهذا الغلاف. ومن خلال هذه الحادثة التي نراها في السماء والتي يطلق عليها اسم "الشهاب" تتفتت كتل النيازك إلى ذرات بالغة الصغر وتتناثر ضمن طبقة الميزوسفير قبل وصولها إلى الأرض.

والمجال المغناطيسي المحيط بالأرض والذي ينتج عن عملية الدوران، والطبقات المختلفة للغلاف الجوي، تعمل على حماية الأرض من الأشعة الضارة الصادرة عن الفضاء ومن الانفجارات الشمسية.

إن الغلاف الجوي يحمينا من البرودة الشديدة المنتشرة في الفضاء والتي تبلغ ٢٧٠ درجة تحت الصفر.

يقول ربنا ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا...﴾ (الأنبياء: ٣٢)



إن الغلاف الجوي يحمينا من البرودة الشديدة المنتشرة في الفضاء والتي تبلغ ٢٧٠ درجة تحت الصفر. وخير مثال على ذلك القمرُ الذي لا يمتلك غلافاً جوياً، حيث تتراوح درجة الحرارة فوق سطحه بين ١٥٠ تحت الصفر و١٠٠ فوق الصفر، لأن الحرارة والأشعة القادمة من الشمس تضرب سطح القمر كما هي دون تغير لعدم وجود غلاف جوي -السقف المحفوظ- محيط به. ويشير القرآن إلى هذه الحقائق في قول الله ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٢)

وظهر في السنوات الأخيرة أمر ملفت للانتباه في أهمية الغلاف الجوي "السقف المحفوظ"، فقد اكتُشِفَ أن طبقة الأوزون آخذة بالضَّعف بسبب الاحتباس الحراري الناتج عن إسراف الإنسان في استعمال الغازات. وقد نتج عن هذا الأمر أضرار كثيرة مثل ذوبان الجليد في قطبي الكرة الأرضية الجنوبي والشمالي، والتغير المناخي، وانتشار سرطان الجلد، وغيرها من الأضرار. ويتم الآن اتخاذ تدابير مختلفة للحد من هذه الظاهرة وتجنب الأضرار المرافقة لها. وقد تناول القرآن الكريم مسألة ظهور الفساد في الأرض نتيجة أعمال البشر وسلوكهم بقوله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)

يقول ربنا ﷻ:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

(الذاريات: ٤٧)

تلقيح المطر

قلنا بأن "السقف المحفوظ" يفتت الأجسام الغريبة التي تدخل إلى الغلاف الجوي وتحولها إلى غبار. ثم تصبح كل ذرة من ذرات هذا الغبار نواةً لقطرات المطر، لأن نزول الماء الذي يتبخر بحرارة الشمس نحو السماء على شكل أمطار يحتاج إلى الذرات التي يُطلَق عليها اسم "نواة التكاثف". وجزيئات الملح التي ترتفع من البحار والمحيطات، والغبار الذي يتصاعد من الصحاري والسهول، والرماد الذي تنفثه فوهات البراكين تُحمَل إلى السماء بواسطة الرياح لتصل إلى طبقات الغلاف الجوي. ثم يُلقَّح بخارُ الماء الموجود في الجو مع هذه الجسيمات ليتحول إلى جزيئات مائية. فنلاحظ أن الرياح مهمتها نقلُ ذرات الغبار من مكان إلى آخر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (الحجر: ٢٢)

ولم تُكتَشَف الوظيفة التلقيحية للرياح في شأن نزول المطر إلا في هذا العصر. وتشير الآية الكريمة أيضاً إلى الوظيفة التلقيحية للرياح بشأن النباتات أيضاً، لأن أزهار الثمار في كثير من النباتات والأشجار تحتاج إلى التلاقح عن طريق غبار الطلع، إذ إن الله ﷻ جعل الوحدانية خاصة به وحده، وخلق من كل شيءٍ في الكون زوجين.

يقول الله ﷻ:
﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (الحجر: ٢٢)
لم تُكتَشَف الوظيفة التلقيحية للرياح في شأن نزول المطر إلا في هذا العصر.



الزوجية قائمة حتى فيما لا تعلمون

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩)

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦)

لقد عُرِفَ أحد أسرار قول الله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ في عصرنا الحالي. فالخلقُ على "مبدأ الزوجية" سارٍ في الكون كله، وحتى الذرات زوجية، إذ إنها مزودة بجانب موجب، وجانب سالب؛ أي "القطب الموجب والسالب". فمثلاً عندما تلتقي الطاقة الكهربائية الموجبة مع الطاقة السالبة يضيء المصباح؛ وعندما تلتقي الغيمة الموجبة مع الغيمة السالبة يهطل المطر. وقد اكتُشِفَ في الفيزياء النظرية وجود ستة عوالم للذرة نفسها وأضداد لها.

وكان الاعتقاد بكون الذرة أصغر عناصر الكون سائداً منذ عهد قدماء اليونان. فكان العلماء يظنون بأن الذرة هي أصغر كائن في الكون وغير قابل للتجزئة والانقسام. ولكن في القرن العشرين تم اكتشاف عالَم الذرة، ثم عُرِفَ بأن هناك إلكترونات تدور حول النواة. ثم توصَّلَ العلماء بأن النواة

يقول الله ﷻ:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦)

تتكون من البروتونات والنيترونات وأجزاء أخرى متناهية في الصغر. ثم بعد ذلك اكتُشِفَ بأن هذه بدورها تشكلت من الكواركات، وما زالت الدراسات والأبحاث جارية بشأن ما وراء الكواركات. أما القرآن فقد أشار منذ أربعة عشر قرناً إلى وجود عناصر و جسيمات أصغر من الذرة:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)

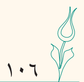
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٣)

ثقل الغيوم

لنعد مجدداً إلى العلاقة بين الرياح والمطر. فقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ثقل الغيوم، إذ قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧)

يشير الحق سبحانه وتعالى إلى نسبية الزمن:
﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)



إن وزن المطر الذي يغطي مساحة خمسين كيلو متر مربع بسماكة واحد سنتيمتر يبلغ نصف مليون طن. وقد قال العلماء بأن غيمة مطرية واحدة يمكن أن يبلغ وزنها ثلاثمئة ألف طن. إن وقوف الغيوم التي تبلغ هذه الأوزان الهائلة في كبد السماء، وعدم إلحاق الأمطار والثلوج التي تهطل منها أي ضرر بالأرض هو مظهرٌ عظيمٌ من مظاهر الرحمة الإلهية، مع عدم إغفال إمكانية وقوع أضرار جانبية جزئية أحياناً بتساقط البَرَد.

وتشير الآية الآتية إلى عملية التكاثف التي تحدث عند هطول المطر، وإلى البَرَد والبرق والعلاقة بينهما:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣)

الشمس والقمر

عندما نجول بنظرنا إلى السماء فإننا نجد فيها مصباحَين كبيرَين يشغلان حيزاً كبيراً من تفكيرنا وتأملنا، هما: الشمس والقمر

لقد استخدم الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عبارات مختلفة بشأن ضوء الشمس والقمر، فقال:

يقول الله ﷻ:
﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾
(الفرقان: ٦١)

فالله ﷻ يشبه الشمس بـ"السراج" الذي يكون مصدر ضوئه ذاتياً أي من داخله، بينما يستخدم من أجل القمر كلمة "النور" الذي يكون انعكاساً لضوء من مصدر آخر، أي غير ذاتي.

ويعبر القرآن عن هذه الحقيقة في آيات أخرى، منها:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: ١٥-١٦)

كانت نظرية بطليموس حول حركة الشمس تقول: إن الأرض ثابتة في المركز والشمس تدور حولها. لأن هذا ما كان يبدو للإنسان من الأرض.

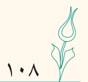
ومع مرور الوقت عَلِمَ الناس بأن الشمس لا تدور حول الأرض، وإنما الأرض تدور حول الشمس. إلا أنهم اعتقدوا هذه المرة بأن الشمس ثابتة في مكانها، لكن الحقيقة أن الشمس هي الأخرى تسير في مدارها داخل مجرة درب التبانة. ويبين القرآن الكريم هذه الحقيقة بقول الله ﷻ:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)

يقول بشر الحافي رحمه الله:

"لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه". (ابن كثير: تفسير، ٢، ١٦٣)



الجديد الذي لا يبلى

القرآن الكريم هو الكلام الأزلي لخالق السماوات والأرض. ولن نعثر فيه على أي تناقض مع الحقائق العلمية والكونية المكتشفة مع أنه نزل إلى الدنيا على قلب نبي الله عليه الصلاة والسلام منذ قرون عديدة.

أما الأعمال التي ينتجها الإنسان فلا تصمد أمام الزمن ولا تصلح لكل العصور مهما اعتقد بأنها دقيقة ومحكمة، لأن الإنسان يضطر في كثير من الأحيان إلى بناء معلوماته على الظنون، والتخمين، والتوقعات، والنظريات التي لم يُبرهَن على صحتها بعد.

فمثلاً إذا ما أجرينا تدقيقاً على كتاب طبي أُعِدَّ قبل خمسين عاماً فقط، فسوف نلاحظ بأن كثيراً من المعلومات أو الأحكام التي تضمنها قد فقدت صلاحيتها اليوم. ويضطر العلماء المختصُّون بين الحين والآخر إلى نشر مجلدات تتضمن تعديلات وتصحيحات على الموسوعات المؤلفة في مختلف المجالات والاختصاصات.

وقد ذكَرَ القرآن الكريم كثيراً من الأمور العلمية والكونية، مثل آفاق الفضاء وما فيها من الأجرام والكواكب، وخلق الإنسان، وتشكل الحليب في الجسم، وإنتاج النحل للعسل؛ وأخبر في كل أمر عن كثير من الحقائق التي لم يعلمها الناس وقت نزوله ولم تُكتَشَف إلا في عصور لاحقة. ولم

القرآن الكريم حبلٌ متينٌ طرفه الأول بيد القدرة الإلهية، وطرفه الآخر ممدود إلينا.
وطريق القرب إلى الله تعالى هو الاعتصام بهذا الحبل بكل قوة.

تظهر الحقائق التي أشار إليها القرآن الكريم جميعها بعد، فالقرآن الكريم يسير في المقدمة دائماً، ويصحح الأخطاء التي تحصل في العلوم الطبيعية، وكافة العلوم تسير خلفه.

وعدم ذكر القرآن الكريم لهذه الحقائق بتفصيل وإيرادها بالإشارة إليها كان من أجل تجنيب الناس تكذيبه لجهلهم وعدم امتلاكهم للمعلومات الكافية عن هذه الحقائق التي يذكرها.

وهذا الأمر يُعد معجزة أخرى من معجزات القرآن حيث إنه يخاطب بنفس العبارة الناسَ جميعاً وفي سائر العصور، سواء الناس الذين كانوا موجودين في القرن السابع الميلادي أيام نزوله، أو الذين جاؤوا في العصور اللاحقة إلى يومنا هذا.

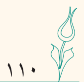
فمثلاً ظهرت مسألة نسبية الزمن في القرن العشرين، وهي أمر يصعب فهمه واستيعابه. إلا أن الله سبحانه وتعالى عبَّرَ بصورة واضحة عن نسبية مفهوم الزمن في عالمنا، إذ قال في كتابه العزيز:

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)

كيف ستكون أحوالنا لو أن ماء المطر صارَ مالحاً مثل مياه البحار، أو صار ملوثاً فيه مادة الأسيد؟!

هل نشكر الخالق على المياه العذبة التي نرتوي بها؟



إن الأرقام الواردة في الآية الكريمة تبين المسافات المختلفة بأسلوب الكناية عن الكثرة، وأما في الحقيقة فإنها تبين نسبية الزمن.

كيف ستكون أحوالنا لو أن ماء المطر صارَ مالحاً مثل مياه البحار، أو صار ملوثاً فيه مادة الأسيد؟!

هل نشكر الخالق على المياه العذبة التي نرتوي بها؟

كروية الأرض

لقد كان الجدل بين الناس حول كروية الأرض قائماً حتى القرن الخامس والسادس عشر الميلادي، فمن قائل بأنها كروية، ومن قائل بأنها مسطحة. وأما القرآن فإن قد أشار إلى كروية الأرض في الكثير من الآيات:

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥)

إن كلمة التكوير التي وردت في الآية والمشتقة من "كَوَّرَ" تأتي بمعنى لفُّ شيءٍ ما حول جسم كروي، مثل لفِّ العمامة على الرأس، وبتعبير أوضح تعني "اللف". وجاء في سورة النازعات:

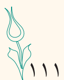
﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠)

إن كلمة "دحاها" الواردة في هذه الآية تعني بَسَطَهَا ومَدَّها، ووَسَّعَها على هيئة بيضة. وبذلك يكون القرآن الكريم قد أشار إلى شكل الأرض الحقيقي منذ قرون مضت.

لنتأمل قليلاً:

لو لم يكن هناك أشجار على وجه الأرض، فكم ستكون الأرض جدباء قاحلة، وكم ستكون خالية من الطمأنينة والراحة النفسية!

فهل نشكر الخالق على نعمة الأشجار؟



وعندما يتحدث القرآن عن مدة مكوث أهل الكهف في كهفهم، يقول:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥)

فإنه بذلك يبيِّن الفرق القائم بين السنة الشمسية التي تبلغ قرابة ٣٦٥ يوماً وست ساعات، والسنة القمرية التي تبلغ ٣٥٥ يوماً. فكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تقابل أربعاً وثلاثين سنة قمرية لوجود فرق يبلغ من ١٠ -١١ يوماً بينهما. وهذه العملية تقتضي أن كل ثلاثمئة سنة شمسية تساوي ثلاثمئة وتسع سنوات قمرية بالتمام. والتقويم الشمسي لم يكن معروفاً في عصر النبوة، لذلك فإن بيان القرآن لهذه المدة الزمنية وبهذه الطريقة يُعد معجزة من معجزاته.

الجبال السائرة

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (النمل: ٨٨)

يمكن توضيح إحدى الحكم الكامنة في بيان حركة الأرض في الآية الكريمة من خلال تشبيهها بالغيوم على الشكل الآتي:

إن الكتل السحابية الرئيسة التي ترتفع عن سطح الأرض بمسافة ٣,٥ – ٤ كيلومترات تتحرك دائماً – إن لم يكن هناك مؤثرات لأحوال الطقس – من الغرب نحو الشرق. والأرض هي الأخرى تدور بالاتجاه ذاته.

يقول أبو الحسن الخرقاني:

"خير وسيلة يتوسل بها العبد لمعرفة ربه إنما هي القرآن الكريم، لذلك ينبغي له البحث عن الله بالقرآن".



وتدور الأرض حول نفسها بسرعة ١٦٦٧ كيلومتر في الساعة، وتدور حول الشمس تقريباً بسرعة ثلاثين كيلومتر في الثانية، وفي الوقت نفسه تتحرك بسرعة كبيرة في الفضاء مع النظام الشمسي ومع مجرة درب التبانة. إلا أننا مع كل هذه السرعة الهائلة التي تتحرك بها الأرض نعيش فوقها بكل أمان وطمأنينة بسبب القانون الإلهي، لأن الغلاف الجوي يدور هو الآخر بالسرعة ذاتها.

ويشير الله تبارك وتعالى في الآية ذاتها إلى حقيقة تباعد القارات بعضها عن بعض، فالقارات تتباعد في اتجاهات مختلفة بمعدل ١ – ٥ سم كل سنة. إن هذا الاكتشاف الذي توصل إليه العالم ألفرد وينر في أوائل القرن العشرين لم يصدقه أحد في البداية، ولكن اعتباراً من ثمانينات القرن ذاته تم اعتماد هذا الاكتشاف حقيقةً جيولوجية.

ويبيِّن القرآن الكريم دور الجبال في الإقلال من الزلازل، والتخفيف من آثارها، إذ يقول الله ﷻ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦-٧)

فالجبال التي تشبه أوتاد الخيام مغروس نصفها تقريباً في الأرض. ويبيِّن الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى بصورة أوضح إذ يقول:

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات: ٣٢)

يقول الفضيل بن عياض قدس الله سره:
"إنما نُزل القرآن ليُعمَل به، فاتخذ الناس قراءتَه عملاً".

ويرى علماء الجيولوجيا اليوم أن أساس الجبال يشبه أعمدة البناء المغروسة في الأرض، إذ تشكِّل طبقةً أساسيةً تدعمها وتسندها.

والأرض تتكون من ثلاث طبقات مثل البيضة التي تتألف من الصفار والبياض والقشرة. ففي مركز الأرض نواة ثم غطاء يحيط بها، ثم القشرة الخارجية. والقشرة الخارجية للأرض صلبة وقاسية مثل قشرة البيض، والقسم الذي تحت القشرة حمم بركانية ذائبة وسائلة. والقشرة الأرضية في قاع المحيطات رقيقة حيث تبلغ سماكتها ٨ – ١٠ كم، وهي سميكة في أقسام الجبال العالية إذ تبلغ ٣٠ – ٤٠ كم.

ولم يدرك الناس أهمية دور الجبال في تأمين توازن الكتل القارية التي تسبح فوق الحمم البركانية الذائبة (الماغما) إلا في عصرنا الحالي. لكن القرآن الكريم أخبرَ بهذه الحقيقة في كثير من الآيات قبل أربعة عشر قرناً:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان: ١٠)

يوجد في الأرض نحو مئة وعشر كتل جبلية كبيرة معروفة تُسمى في علم فيزياء الأرض بـ "النقاط الساخنة". وهذه هي الحمم البركانية الذائبة (كتل الماغما الكبيرة) التي تَحُولُ دون تحرك القشرة الأرضية، حيث تصعد من أعماق الأرض إلى ظهرها. فبعد أن تثقب القشرة الأرضية وترتفع إلى الأعلى تتصلب وتصبح كالمسامير التي تثبت القشرة الأرضية، فتحقق توازناً عجيباً للقشرة الأرضية.

إن الكتاب الوحيد الذي يحوِّل مجاهيل رحلة الحياة إلى معلوم، ويقدم الحلول لأسئلتها الكثيرة، ويضيء ظلماتها، ويحتوي على الأدلة والبراهين المطمئنة للعقل والقلب من جميع الجوانب إنما هو القرآن الكريم.

البحار التي لا تمتزج مياهها

لم يكتشف عدم اختلاط المياه المختلفة في درجة حرارتها ونسبة ملوحتها في المضائق التي توصل البحار ببعضها، وأماكن مصبات الأنهار في البحار إلا في عصرنا الحديث، وكأن بين تلك المياه سدّاً غير مرئي. وأما القرآن الكريم فقد أخبر بهذه الحقيقة منذ زمن طويل، إذ يقول الحق ﷻ:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠)

الوقود الأحفوري

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (الأعلى: ٤-٥)

يقول حمدي يازار أفندي في تفسير هاتين الآيتَين:

"إن الله سبحانه وتعالى أنبتَ في البدء المروجَ، والأعشاب، ومختلف أنواع الأشجار التي في الغابات، والبساتين، والهضاب، ثم بعد ذلك جعل كل هذه سماداً وفحماً أسوداً". (تفسير القرآن الكريم: ٨، ٥٧٤٧)

إن كلمة "أحوى" الواردة في الآية الكريمة اسمٌ يُطلق على اللون الشاحب، والأسمر، والأخضر الداكن، والمائل للسواد. وقد فُسِّرت هنا بمعنى الأسود، والأسمر، والأخضر الداكن. (انظر حمدي يازار: تفسير القرآن، ٨، ٥٧٤٨)

طوبى لأولئك المؤمنين الذين جعلوا الإيمان في قلوبهم، والقرآن في صدورهم، والأخلاق الحميدة مبتغاهم، فعاشوا بطمأنينة وسعادة.

وقد تكوَّنت أنواع الوقود مثل الفحم والنفط نتيجة تحجُّر بقايا أشجار عملاقة قبل قرون ماضية، ثم تدفقت سوائلها مثل مياه سوداء، وهذه حقيقة لم تُكتَشَف إلا في عصرنا الحديث.

من الموت إلى الحياة

إن الكائنات الحية التي تموت تتحجر خلال مدة زمنية طويلة ضمن ظروف معينة، إذ يتم العثور بصورة مستمرة على كثير من هذه الكائنات المتحجرة في الطبيعة. وتتولى البكتيريا والفطريات تفتيت جميع الكائنات الميتة في الطبيعة وتعيد إدخالها إلى السلسلة الغذائية من جديد. وتوجد إشارة في القرآن الكريم إلى عالم النباتات والبكتيريا، إذ يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥)

تنفس الصباح

أشارَ القرآن الكريم إلى انفلاق البذرة والنواة، وهذا الأمر يشكل بدايةً مهمَّة بالنسبة للنباتات. وتتابع النباتات حياتها عن طريق عملية التركيب

ليس هناك أي ملحد يقول: "أريد أن أتجول في الأرض ومعي أسطوانة من الأوكسجين" خشية تغير نسبة الأوكسجين أو فساده في الجو. لأنه على يقين بأن هذا التوازن البيئي الإلهي السائد في الكون لا يختل، ولا يضع حتى احتمالاً لاختلاله. أي إنه في حال اعتقاد واعتماد خفي على التدبير والإرادة الإلهية.



الضوئي، وتقوم أثناء عملية التركيب الضوئي بامتصاص الأوكسجين وطرح ثاني أكسيد الكربون في الليل، وفي النهار تعكس هذه العملية حيث تأخذ ثاني أوكسيد الكربون وتطرح الأوكسجين. ويشير القرآن الكريم إلى هذه العملية في الآية الآتية:

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير: ١٥)

اختلاف الضغط الجوي

إن الضغط الجوي ينخفض كلما ارتفعنا عن سطح البحر نحو الأعلى وذلك بنسبة متوسطة تبلغ ١ ميلي بار في كل ١٠,٥ متر. والحرارة هي الأخرى تنخفض كلما ارتفعنا عن سطح البحر بنسبة متوسطة مقدارها ٠,٥ درجة في كل مئة متر. والأمر ذاته بالنسبة للارتفاع عن سطح الأرض، فكلما ارتفعنا عن الأرض، نلاحظ انخفاض كثافة الأوكسجين بسبب كثافة الغلاف الجوي والغبار. ولهذا كلما ارتفع الإنسان إلى الأعلى يتعرض لحالات من ضيق التنفس، والإغماء، وصعوبة في التحدث والرؤية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في الآية الآتية:

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

يقول الله ﷻ :

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥)

تصعد الطائرات إلى السماء مبتعدة عن الأرض بمقدار عشرة آلاف متر تقريباً ثم تكمل رحلتها على هذا الارتفاع، لأنها بذلك تبتعد عن الجاذبية الأرضية، وتقلّل الاحتكاك في الضغط الجوي المنخفض، فتستهلك وقوداً أقل. ولكن نسبة الأوكسجين تنخفض كثيراً على هذا الارتفاع، لذلك اتُّخِذَت تدابير احتياطية لمواجهة أي طارئ عند فقدان الأوكسجين أو نقصه على متن الطائرات وذلك عن طريق أقنعة موصولة بأسطوانات الأوكسجين، فالطائرات لا تصعد إلى تلك الارتفاعات دون اتخاذ تدابير إضافية.

ليس هناك أي ملحد يقول: "أريد أن أتجول في الأرض ومعي أسطوانة من الأوكسجين" خشية تغير نسبة الأوكسجين أو فساده في الجو. لأنه على يقين بأن هذا التوازن البيئي الإلهي السائد في الكون لا يختل، ولا يضع حتى احتمالاً لاختلاله. أي إنه في حال اعتقاد واعتماد خفي على التدبير والإرادة الإلهية.

وفي الأساس لا يوجد في الكون أحد لا يؤمن بهذه الحقائق، فكل إنسان يعيش بحال من التسليم والإيمان الخفي، لكنه إن لم يدرك ذلك، ظنَّ أن لا إيمان عنده فيكون من الخاسرين.

ما أعظم شأن الله الذي يُسمِع الأذن التي ليست إلا قطعة من عظم، والذي يُبصِر العين التي ليست إلا قطعة من شحم، والذي يُنطِق اللسان الذي ليس إلا قطعة من لحم!

اكتشاف جغرافي

يبين الله تبارك وتعالى لأهل مكة في سورة الروم حقيقةً تاريخيةً وجغرافيةً معاً، إذ يقول:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم: ٢-٣)

إن كلمة (أدنى) تعني الأقرب، وتعني أيضاً الأخفض، فيكون المعنى هنا أخفض مكان في الكرة الأرضية. والمكان المُشَار إليه في الآية مكان بحيرة لوط الذي ينخفض عن سطح البحر بمقدار ٤٠٠ متر.

عندما نوجِّه تفكيرنا إلى خلق الإنسان، فإننا نتوصل إلى مزيدٍ من النتائج الباعثة على الحيرة والدهشة والإبهار. لأن القرآن الكريم قد أورد تفاصيل دقيقة وعظيمة عن خلق الإنسان ابتداءً من مرحلة النطفة ثم باستقراره في رحم الأم وتكوِّنه فيه على مراحل عديدة.

علم الأحياء وعلم الأجنة

لم يكن الناس في الماضي يعرفون أن الإنسان يُخلَق من نطفة أبيه.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (الحج: ٥)

يقول إسماعيل حقِّي البورصوي:

"إنك لا تؤدي العبودية لله تعالى كما يليق به، ومع ذلك فإنه يرفع من قدرك، ويسبغ عليك بنعمه المادية والمعنوية، الظاهرة منها والباطنة، وكأنه ليس لديه عبد غيرك. وأما أنت فإنك في غفلة عن العبودية له، وكأن لديك ملجأً أو سنداً أو ملاذاً غيره".

إن الاكتشافات التي توصل إليها علم الأجنة حول تكون الجنين من خلال استخدام الأجهزة المتطورة والعمليات التشريحية العلمية تتطابق تماماً مع المراحل التي تحدث عنها القرآن الكريم.

ويرد في القرآن الكريم تعداد تسلسلي للحواس التي يهبها الله تعالى للإنسان على الشكل الآتي: "السمع، والبصر، والإدراك" وقد ثبت هذا التسلسل علمياً، فأول حاسة تتكون لدى الجنين في بطن أمه إنما هي حاسة السمع.

إن اللغز الأكبر الذي لم يستطع الإنسان حلَّه هو "الحياة". فالإنسان يكثِّف من أبحاثه حول ما إذا كان في الكون حياة أخرى أم لا. وعندما يعثر على الماء أو على أثر منه في مكان ما يشعر بالفرح لاحتمال وجود الحياة هناك، وذلك لأنه يرى أن نموذج الكائنات الحية ظهَرَ لأول مرة في المياه. فالمادة الحيوية (البروتوبلازما) التي هي البيئة الوحيدة التي تكون مظهراً للحياة يكاد أغلبها مكوَّن من الماء.

وقد قال خالق كل شيءٍ في كتابه العزيز قبل قرون:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣)

فخلقُ الكائنات الحية من المني هو أيضاً خلقٌ من الماء.

يعتقد الناس أن الاختراعات التي ظهرت اليوم نتيجة التطور الصناعي حضارةٌ ومدنيَّةٌ، وصاروا يرجون المدد والعون من الآلات التي هي قطع من حديد لا روح فيها. فباتت الأنفس البعيدة عن التزكية والمعتمدة على قوة المادة ترى مصلحتها وسعادتها فوق كل شيءٍ.



بصمة الإصبع

يخاطب الحق ﷻ الكافرين الذين ينكرون البعث بعد الموت بقوله:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة: ٣-٤)

إن بصمات الأصابع تختلف كلياً من إنسان لآخر، ويُستفَاد اليوم من هذا الاختلاف في علم التحقيق الجنائي للاستدلال على المجرمين.

الجلد هو الذي يشعر بالألم

تتجلى في القرآن الكريم إشارات إلى حقائق علمية عند تناوله مختلف الموضوعات والمسائل، لأنه كتابُ العالِم بكل شيءٍ، كتابٌ يفيض بالحكم والأسرار. ومثال ذلك الآية الآتية التي تتحدث عن العذاب يوم القيامة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦)

أجرى البروفسور تجاتات تجاسن، أحد أعضاء الهيئة التدريسية في جامعة جيانغ ماي التايلاندية، دراسةً على الأمراض الجلدية، واكتشف بأن في الجلد أنسجة عصبية تنقل الألم إلى الدماغ، وإذا ما تعرضت هذه

يُهجَّر اليوم الملايين من أبناء سوريا من بلادهم وبيوتهم، وأما من يتشبث منهم بأرضه ويبقى في بيته ووطنه تُمطَر على رؤوسهم الآلاف من القنابل التي تحرق البشر، والشجر، والحجر، وكل ذلك بسبب جشع الظالمين وطمعهم بالنفط والسُّلطة.
"فهذه هي الحضارة المتوحشة المكشرة عن أنيابها!"

الأنسجة للحرق والتلف فلن يكون هناك شعور بالألم، فكانت معرفته بأن هذا الاكتشاف مذكور في القرآن الكريم سبباً لدخوله الإسلام.

ويشير القرآن الكريم عند حديثه عن أهل الكهف إلى حقيقة أن السمع هو الحاسة الوحيدة التي تعمل أثناء النوم، إذ يقول:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف: ١١)

إنتاج الحليب

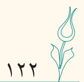
يذكر القرآن الكريم كيفية تكوُّن الحليب لدى الكائنات الحية بإيجاز ووضوح عجيب يُعجز العقول، إذ يقول:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦)

لم يعلم الناس حقيقة العبارات القرآنية "الفرث" و"الدم" التي تتكلم عن إنتاج الحليب إلا حديثاً من خلال التقدم الحاصل في علم الكيمياء والتعمق في معرفة وظيفة الجهاز الهضمي. ولم يكن الناس يعلمون في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أن الدم ينقل المواد الغذائية المستخلصة من الأطعمة المهضومة في الجهاز الهضمي إلى غدد إفراز الحليب، وأن هذه الغدد تقوم بتدوير المواد الخام الواصلة إليها وتنتج منها الحليب.

ظل النبي ﷺ ذات ليلة يكرر الآية الآتية حتى الصباح:

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨. النسائي: الافتتاح، ٧٩)



وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الأحوال التي تجلت للسيدة مريم العذراء قبل ولادتها لسيدنا عيسى ﵇، فإنه يبيِّن كثيراً من الأسرار الطبية والبيولوجية، فيقول:

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مريم: ٢٣-٢٦)

إن الله تبارك وتعالى يوجِّه السيدةَ مريم في هذه الآيات إلى جدول ماء ويأمرها بتناول الرُّطَب من شجرة النخيل. يتحدث مايكل أودينت في مقالته المنشورة في مجلة ذا لانسيت (The Lacent) في عدد كانون الأول عام ١٩٨٣ عن دور الماء في التخفيف من الضغط النفسي والإجهاد عند الأم أثناء الولادة وعن تأثيره المباشر على الشد العضلي لديها، ويوصي ببناء أحواض مائية بجانب غرف الولادة.

وأما التمر فإنه يُعد خزَّاناً للسكر وللكثير من الفيتامينات والمعادن التي تحتاجها المرأة عند الولادة. وهناك سر آخر في التمر:

إن عرفنا رسول الله ﷺ اليوم فإنه سوف يعرفنا غداً في المحشر، ويستقبلُنا عند حوضه؛ وإذا نظرنا إليه بقلوبنا، فإنه أيضاً سوف ينظر إلينا؛ وإذا استمعنا إليه، فإنه سوف يغمرنا بإحسانه.

ففي بداية القرآن العشرين اكتُشِفَ هرمون (أوكسايتوسين) الذي يعمل على إطلاق عملية الولادة وتسريعها. ويلعب هذا الهرمون دوراً مهماً في انقباض عضلات الرحم، وإصلاح العروق والأعصاب التالفة، وفي إفراز الحليب، وزيادة إحساس الأمومة التي تدفع الأم إلى التعلق بوليدها. وقد أُطلِقَ على هذا الهرمون اسماً يأتي بمعنى "الولادة السهلة" للخصائص التي يتمتع بها.

وفي الآية العشرين من سورة عبس يتحدث الله سبحانه وتعالى عن تسهيل عملية الولادة بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ . وأما التمر الذي أُمِرَت السيدة مريم عليها السلام بتناوله فإنه يؤثِّر في نهايات الأعصاب التي تؤمِّن هرمون (الأوكسايتوسين) وبالتالي يُسهِّل عملية الولادة.

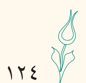
غنى حليب الأم

يُعَدُّ حليب الأم أحد المكرمات الإلهية التي يلفت القرآن الكريم نظرنا إليها.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣)

لم يكن ثوبان ﵁ يمتلك من أموال الدنيا حتى شجرة شوك. إلا أنه كان أغنى أهل الدنيا، لأنه نالَ محبة رسول الله ﷺ وصحبته.



﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (لقمان: ١٤)

لم يكن الناس يعلمون بأن حليب الأم يشكِّل غذاءً مهماً للأطفال إلى أن ظهرت مخابر الفحص والتحليل. حتى إن حليب الأم كان يُعد في نظر أتباع نظرية التطور والارتقاء الذين يرون الإنسان نتاجاً لتطور مخلوق آخر، غذاءً بدائياً.

ولكن أظهرت نتيجة التحاليل أن:

حليب الأم غذاء متكامل يحتوي على كل ما يحتاجه الطفل في حياته من فيتامينات وهرمونات ومواد واقية لجسمه وأنزيمات مقاومة للميكروبات. ويحتوي من الناحية المعنوية على العناصر التي ستشكل شخصية الأم في الطفل.

ويوجد في حليب الأم كامل البروتينات، والشحوم، والسكريات، والفوسفور، والفيتامينات التي تُعد عناصر ضرورية وأساسية لتغذية الإنسان، وهذه المواد متوفرة في الحليب بمقادير متوازنة، وبما يتناسب مع بنية الطفل الجسدية. ومن إعجاز القرآن أنه ذكرَ مدةَ الرضاعة، إذ حدَّدَ أقل مدة الرضاعة التي لها فائدة لجسم الطفل بـ"ستة أشهر" وأكثرها بـ"سنتين".

أين نحن من محبة ثوبان رضي الله عنه للنبي؟ وكم تقلقنا خشية فراقه صلى الله عليه وسلم في الآخرة؟

إن معجزات القرآن الكريم تبعث الانشراح في الصدور. فمواجهة القرآن لمشكّكي عصرنا الحالي الذين انساقوا وراء الطبائع الجاهلية تُعد شاهداً ودليلاً جديداً على حقيقة نزول القرآن الكريم من عند الله تعالى.

ولا نجد هذا الإعجاز في الكتب السماوية القديمة المحرَّفة. فمثلاً عندما تحدثنا عن الشمس والقمر في الأعلى بيَّنَّا بأن القرآن الكريم أشار إلى اختلاف مصدر الضوء فيهما، أما التوراة المحرفة فتذكر أن الشمس والقمر ضوآن فقط.

هناك حساب!

إن التفكر يقود الإنسان إلى التأمل بالنعمة، ويُذكِّر بالحساب. فالإنسان الذي ينظر إلى الدنيا بلا تدبر وتفكر، يسعى بكل جهده واستطاعته لامتلاك النعم الفانية في هذه الدنيا الزائلة. والحق أن سعيه هذا لا يختلف عن السعي لشرب الماء من السراب.

وكل نعمة من نعيم الدنيا امتحان، لذلك فإن حرامها يُعرِّض الإنسان للعذاب، وحلالها يُعرِّضه للحساب. وقد بدأت سورة التكاثر بالإشارة إلى انشغال الإنسان بإنجاب الأولاد، وختمت بهذا التحذير الذي يلفت أنظار الناس إلى الآخرة:

كم نفكر بنعمة أن الله سبحانه وتعالى خلقنَا من عدم، وجعلنا أشرف المخلوقات في هذا الكون؟

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)

لما نزلت هذه الآية المباركة سألَ كثير من الصحابة الفقراء والمحتاجين النبيَّ عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله عن أي نعيم نُسأَل؟

فأجابهم النبي عليه الصلاة والسلام:

- **"ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد"**.(انظر الترمذي: الشمائل المحمدية، ٢١٠)

فلنتأمل في جواب رسول الله ﷺ:

إن الأشجار مخلوقة من أجلنا، إذ نستظل بظلها، ونأكل من ثمارها، ونصنع من جذوعها وأغصانها أدوات خشبية نستفيد منها في معاشنا. وللأشجار وظيفة أخرى في الحياة ألا وهي تنقية الهواء، إذ إنها تمتص ثاني أكسيد الكربون من الجو، وتطرح فيه الأوكسجين، فهي كرئة للمجتمع والبيئة. وهي كذلك تُسِّر عيوننا بأوراقها الخضراء، وأزهارها مختلفة الألوان، وتُدخِل البهجة في القلوب. فماذا لو أن الأشجار لم تكن موجودة؟ كم ستكون الدنيا قاحلة جرداء وتبعث على الكآبة والوحشة؟!

إن المخلوقات الأخرى تعجز حتى عن ارتداء حذاء، أما نحن فنستطيع أن نصنع مختلف أنواع الأحذية من مواد متعددة مثل جلود

إن كوننا من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إمام ما يزيد عن مئة وأربعة وعشرين نبياً ورسولاً هو أعظم نعمة نعَجز عن شكرها. فلو أننا بقينا ساجدين لا نرفع رؤوسنا مدى العمر شكراً على هذه النعمة لبقيَ شكرنا ناقصاً وقليلاً.

الحيوانات المسخرة لنا، وذلك بالمهارة التي منحنا إياها الحق سبحانه وتعالى. وبذلك نقي أنفسنا من الحر والبرد، وخشونة الحجارة، ومن الأشواك والأوساخ، فهل نستطيع أن نشكر الله على هذه النعمة كما ينبغي؟

وكيف ستكون أحوالنا لو أن ماء المطر صارَ مالحاً مثل مياه البحار، أو صار ملوثاً فيه مادة الأسيد؟!

ينبغي أن نتفكر في سائر النعم التي نتقلب فيها والتي لا تُعد ولا تحصى ابتداءً من أبسطها.

فكلما استُعمِلَت النعم لأداء واجب الشكر والحمد، كان الحساب عليها سهلاً يسيراً.

ماذا يريد الله تبارك وتعالى منا مقابل هذه النعم والعطايا؟

عندما نقول: "لا إله" أثناء نطق الشهادة، فإن الله تعالى يريد منا أن نُخرِجَ الأهواء والرغبات النفسية من قلوبنا.

وعندما نقول: "إلا الله" فإنه يريد أن نرتقي في روحانياتنا، وبذلك سيصبح القلب محلَّاً لنظر الحق سبحانه وتعالى.

وهذا يكون بالإقرار بأن "محمداً رسول الله"، وبمعرفته بالقلب. وسوف يتيسَّر بالإعجاب بشخصه ومحبته، وباتباع سنته.

كان رسول الله ﷺ متواصلاً للأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلام، لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر. (ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١، ٤٢٢ – ٤٢٣)

قدوتنا في التفكر أيضاً

إن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام يُعَدُّ قدوتَنا في التفكر بالكون.

فكما أن القرآن الكريم معجزة كلامية، فإن النبي عليه الصلاة والسلام معجزة إنسانية؛ فهو القدوة الحسنة، وهو المثل الأعلى لنا!

وعلى من يريد الاطلاع على سر الحياة الأسرية المثالية أن ينظر إلى أسعد أُسَر الدنيا التي أسهها عليه الصلاة والسلام.

ومَن أراد البحث عن المجتمع المثالي، فإن عصره ﷺ خير مثال له.

ويستطيع كل إنسان أكان صغيراً أم كبيراً إيجاد الحلول لمشاكله بالنظر إلى حياته عليه الصلاة والسلام.

وبالقرب منه عليه الصلاة والسلام تنضج قلوبنا فتكون مستعدةً للتفكر.

لذلك لا بد من إدراك أن الانتساب إلى أمته رحمةٌ عظيمةٌ لنا، وعلينا أن نشكر الله تعالى أن جعلنا من أمته عليه الصلاة والسلام.

إن العلاقة القائمة بين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والكون هي موضوع تفكر.

"كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخِذوا المساجد بيوتاً، وعوِّدوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكر والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء". (أبو نعيم: حلية الأولياء، ١، ٣٥٨)

الظرف والمظروف

لقد خُلِقَ النبي عليه الصلاة والسلام ليكون "ظرفاً" لمعرفة الله، و"مظروفاً" لسائر المخلوقات.

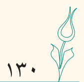
فالنبي عليه الصلاة والسلام خُلِقَ "ظرفاً" لأن الحق سبحانه وتعالى خلقَ المخلوقات وجعل "معرفة الله" مبتغى لها، وأول كائن خلقه هو "النور المحمدي".

والإنسان الذي يُعدُّ أكثر الكائنات استعداداً وقدرةً للمعرفة لا يستطيع معرفة الحق سبحانه وتعالى إلا من وراء حجب وأستار، وذلك لجلاله تعالى وعظمته التي لا تحيط بها المدارك والعقول، ولشدَّة ظهوره التي جعلت جبل الطور دكًّاً.

وهذا الحجاب هو "الحقيقة المحمدية" التي هي كالظرف المتناسب مع المظروف بصورة تُضفي الأُنس بـ"معرفة الله"، وتُعلِّم وسائل رضا الباري، وتؤمِّن "محبة الله"، وترشد إلى المعراج، وتشفع من أجل المغفرة.

فكأنَّ "النور المحمدي" ظرفٌ لرسالة فيها حقائق تُوصِل إلى "معرفة الله". فمن استطاعَ أن يفتح ذلك الظرف ويقرأَ ما فيه، اطَّلعَ على الحقائق الإلهية وتجليات أسماء الله. فالنبي عليه الصلاة والسلام مثل ظرف

القرآن الكريم معجزة كلامية، والنبي عليه الصلاة والسلام معجزة إنسانية، فهو القدوة الحسنة، والمثل الأعلى.



لمعرفة الله، أي إن العبد لا يستطيع أن يبلغ كمال القرب من الحق سبحانه وتعالى إلا بوسيلة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وكذلك فإن القرآن الكريم الذي هو رسالة الحق سبحانه وتعالى إلى الناس أُوحِيَ إلى قلب النبي عليه الصلاة والسلام. وقد كان خُلُق النبي القرآن، وسيرته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً كانت كظرفٍ للقرآن العظيم بكل صفحة من صفحات سيرته المباركة.

إن الذين يطَّلعون على سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ويتعلمون سنَّته ثم يطبقونها، يصبحون كأنهم يعيشون أخلاق القرآن ويحيونها بين الناس، لأن سنته الشريفة هي التفسير الأصح والأصلح للقرآن، وحياته التطبيقُ الأمثل للقرآن.

لذلك فإن نبع المحبة والرحمة الوحيد الذي يقود العبد إلى بحر محبة الله تعالى إنما هو النبي عليه الصلاة والسلام، لأن محبة النبي عليه الصلاة والسلام من محبة الله ﷻ، وإطاعته إطاعة لله ﷻ، وعصيان أوامره عصيان لأوامر الله ﷻ.

يقول المولى جل جلاله في كتابه العزيز:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)

يقول النبي ﷺ:

"والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله". (ابن ماجه: الزهد، ١٩؛ انظر مسلم: الفضائل، ١٣٤)

ويمكننا أن ندرك أيضاً قيمة حقيقة كون النبي عليه الصلاة والسلام ظرفاً لـ"معرفة الله" من خلال العاقبة التي انتهت إليها الأديان المحرفة والباطلة. فالمخلوقات التي هي بموقع الظرف حلَّت تقريباً في كل هذه العقائد الباطلة التي تدعي إيصال الإنسان إلى الحقيقة محلَّ المظروف، فأصبحت أوثاناً، وتحولت من كونها وسيلة إلى غاية.

فبدأ الوثنيون بعبادة أوثان وأصنام مختلفة، والبوذيين بدؤوا بعبادة بوذا، والنصارى بدؤوا بعبادة سيدنا عيسى عليه السلام.

وأما خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فإنه سوف يستمر رسولاً ونبياً وصاحب الرسالة الوحيدة الصالحة لكل مكان وزمان، وسيظل مرشداً للناس على طريق التوحيد الحقيقي وطريق "معرفة الله" إلى يوم القيامة.

لقد خُلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بوصفه "مظروفاً" لأن:

كل المخلوقات مخلوقة بحُرمة محبة الحق عز وجل للنور المحمدي وعلى شرفه، فنبينا عليه الصلاة والسلام يُعد مظروفاً لظرف الكون كله، كالجوهرة الثمينة التي توضع أولاً على قطعة قماش حريري ثم تُحفَظ في علبة قيِّمة... فقيمة العلبة كلها مستمدة من الجوهرة الثمينة التي تحملها بداخلها...

إن القرآن الكريم الذي هو رسالة الحق سبحانه وتعالى إلى الناس أُوحِيَ إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم. وقد كان خُلُق النبي القرآن، وسيرته التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً كانت كظرفٍ للقرآن العظيم بكل صفحة من صفحات سيرته المباركة.

يخبرنا الله تبارك وتعالى أن خلق الإنسان كان لأداء واجب العبودية. والإنسان الوحيد من بين البشرية جمعاء الذي أدى واجب العبودية بأفضل صورة إنما هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ولنضرب هنا مثلًا شُجيرة الورد، فليس المراد من شجيرة الورد الجذع، ولا الأغصان، ولا الأشواك، ولا الأوراق، وإنما المراد منها الوردة فقط. ومصاحبة الأوراق لتلك الوردة شرفٌ كبير لها، وخدمة الجذع لتلك الوردة نعمة كبيرة له، حتى إن تبلل التراب الذي على أطراف الساق بندى تلك الوردة وتشرُّبِه بعطرها الفواح يُعد حسن حظ وسعادة عظيمة بالنسبة له.

يبيِّن الشيخ سعدي الشيرازي هذه السعادة في كتابه (بستان الورود) بالتشبيه الآتي:

كنت ذات يوم في الحمَّام، فأعطاني أحد الأصحاب صلصالاً ذا رائحة طيبة.

فسألت الصلصال:

– أيها المبارك، أأنت مسك أم عنبر؟ فلقد تلذذت برائحتك الطيبة التي تأخذ بالألباب.

فأجابني:

إن المؤمن المحب المطيع لرسول الله ﷺ يفيض قلبه بالرحمة. فهو إنسان رحمة، وهو مثل المطر يبعث الحياة في كل مكان يحل فيه، ويضيء مثل الشمس كل مكان مظلم. فالإنسان، والحيوان، والنبات يحيا به.

- لقد كنت تراب إحدى الورود، وكانت أوراق تلك الوردة تبتل بقطرات الندى في الأسحار، ثم تنهمر عليَّ. فأصبحت مثل العجين بتلك القطرات. فأنا لست في الأصل إلا تراباً، وهذه الرائحة الطيبة من تلك الوردة...

يقول الشاعر فضولي البغدادي معبراً عن تميُّز النبي عليه الصلاة والسلام بجماله مثل الوردة التي لا مثيل لها:

"لا يرهقنَّ البستاني نفسه في سقاية بستان الورود!

فإنه وإن سقى ألف بستان، فلن تتفتَّح وردةٌ مثل جمال وجهك يا رسول الله".

إن نبينا عليه الصلاة والسلام المثلُ الأعلى والأسوة الحسنة، فالله سبحانه وتعالى لم يجعلنا نجهل أعلى درجات العبودية التي أرادها منا، وأعظم الأخلاق التي رضي عنها، بل أرانا إياها في شخص رسوله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وعظمة النبي عليه الصلاة والسلام تظهر أيضاً في أنه النبي الوحيد الذي دُوِّنَت أدقُّ تفاصيل حياته، وكل أقواله وأفعاله وسيرته بين أصحابه ونُقِلَت بصورة صحيحة للأجيال اللاحقة.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:
"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".(البخاري: الإيمان، ٨)



فإن كنا نودُّ أن تكون لنا قيمة عند الله تعالى، فينبغي أن نحمل تلك الجوهرة في قلوبنا، ونتخلَّق بأخلاقه الحميدة، ونسعى جاهدين للسير على خطاه في حياتنا، لأنه عليه الصلاة والسلام يقول:

"المرء مع من أحبَّ" (البخاري: الأدب، ٩٦)

وأما حقيقة هذه المصاحبة فهي المصاحبة بالحال، والمصاحبة بالعمل، والمصاحبة بالإحساس والفكر؛ أي هي مصاحبة الاستقامة.

إن حضوره في قلوبنا نعمة عظيمة، فالله تبارك وتعالى يقول:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (الأنفال: ٣٣)

ويمكن أن نستنتج من هذه الآية الأمر الآتي:

"إن القلب الذي ليس فيه محبة النبي واتباعه مستحق للعذاب الإلهي".

نعود مجدداً إلى تشبيهنا؛ إذا ما ضاعت الجوهرة المحفوظة، فإن صاحبها لن يولي أي أهمية لعلبتها ولا صُرَّتها ولا لقطعة القماش التي كانت موضوعة عليها، فكل هذه الأمور تفقد معناها من بعد ضياع الجوهرة وتصبح قمامة.

هناك مقولة موجزة لمولانا جلال الدين الرومي يقول فيها:

إن الذين يطَّلعون على سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ويتعلمون سنَّته ثم يطبقونها، يصبحون كأنهم يعيشون أخلاق القرآن ويحيونها بين الناس، لأن سنته الشريفة هي التفسير الأصح والأصلح للقرآن، وحياته التطبيقُ الأمثل للقرآن.

"لقد خُلِقَ العالَمَان من أجل قلب واحد، فكِّرْ وتأمَّلْ بمعنى العبارة الآتية: (لو لم تكنْ، لما خلقتُ هذا الكون)".

وقد وردَ في الحديث الشريف:

"لما اقترف آدم الخطيئة التي كانت سبباً في إخراجه من الجنة قال:

– يا رب، أسألك بحق محمد لَـمَا غفرت لي.

فقال الله ﷻ:

– يا آدم، وكيف عرفتَ محمداً ولم أخلقه؟

قال آدم عليه السلام:

– يا رب، لأنك لمَّا خلقتني بيدك، ونفخت فيَّ من روحك، رفعتُ رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) فعلمتُ أنك لم تضفْ إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك.

فقال الله تبارك وتعالى:

– صدقتَ يا آدم، إنه لأحب الخلق إليَّ، ادعُنِي بحقِّه، فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك". (الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٧٢؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٥، ٤٨٨ – ٤٨٩)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟

قال: "**وآدم بين الروح والجسد**". (الترمذي: المناقب، ١)

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"لقد مسح المصطفى عليه الصلاة والسلام الجذع الذي أخذ يئنُّ لفراقه بحنان. وأنت أيها الإنسان لست بأقل من الشجر، فكن مثل ذلك الجذع والزم الأنين من الفراق..."



أي إن النبي عليه الصلاة والسلام كان قبل آدم عليه السلام من جهة خلق نوره وإسناد الرسالة إليه. وأما من جهة الجسد وظهوره في عالمنا هذا، فهو الورقة الأخيرة لتقويم النبوة. لأن تقويم الرسالة يبدأ وجوده الأول "بالنور المحمدي"، وتنتهي ورقته الأخيرة ب "الجسد المحمدي".

يصف الشاعر نجيب فاضل النبيَّ عليه الصلاة والسلام بـ"نور الوجود"، ويعبِّر عن سِرِّ حقيقته بقوله:

"إننا موجودون بسببه".

والخلاصة أن كافة المخلوقات مدينة بالشكر لنور الوجود الذي قال الحق سبحانه وتعالى عنه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

ويعبِّر الشاعر محمد عاكف عن هذه الحقيقة بعبارات جميلة يقول فيها:

كلُّ ما في الدنيا هِبةٌ لأجل خاتم المرسلين

مديون له المجتمع والفرد كل حين

مديون لهذا المعصوم الناس أجمعين

فاحشرنا يا رب بهذا الإقرار يوم العرض المبين

إن نظرة كل إنسان على حسب قلبه. فنظرة قلب غُمِرَ بالرحمة تصبح رحمةً لمن ينظر إليه، وأما نظرة الجشع المصاب قلبه بداء الحسد فتصيب الذي ينظر إليه بالمرض.

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يُعبِّر في كل الأحوال عن أهمية حال الظرف والمظروف التي بيَّناها لتتمكن الأمة من الاستفادة منها، وذلك مع محافظته على تواضعه ووقاره وعدم اغتراره بمكانته التي يتمتع بها، ومن ذلك قوله:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين".(البخاري: الإيمان، ٨)

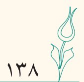
"أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيِّين ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفَّع ولا فخر". (الدارمي: المقدمة، ٨)

"أنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر". (الدارمي: المقدمة، ٨. انظر أيضاً الترمذي: المناقب، ١ / ٣٦١٦)

لقد عرف العالَم بجِنِّه وإنسِه القيمةَ العظيمة والفريدة لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إذ يقول في الحديث الشريف:

"إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلم إني رسول الله إلا عاصي الجن والأنس". (أحمد: مسند، ٣، ٣١٠)

إن نظرة الرحمة وسيلة للهداية. إنها النظرة التي تبحث عن الشريان الذي يصل إلى كل قلب وتجده، وهي نظرة الابتسامة التي يحثُّ عليها دين الإسلام.



يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"أيها الغافل، انظر إلى معجزات موسى وأحمد عليهما الصلاة والسلام. انظر كيف تحولت العصا إلى حية تسعى، وانظر كيف صار الجذع صاحب عرفان وأَنَّ لفقد صاحبه!"

"لقد مسح المصطفى عليه الصلاة والسلام الجذع الذي أخذ يئنُّ لفراقه بحنان. وأنت أيها الإنسان لست بأقل من الشجر، فكن مثل ذلك الجذع والزم الأنين من الفراق..."

نعم الزم الأنين من فراقه لأنه عليه الصلاة والسلام سيتضرع إلى الله تعالى قائلاً: "أمتي، أمتي!".

لا بد أن يكون الإنسان الذي يدرك أهمية نور الوجود مختلفاً عن سائر المخلوقات. وقد قيل للتعبير عن هذا الأمر بالاستلهام من مولانا جلال الدين الرومي:

"الحطب يحترق فيصبح رماداً، والقلب يحترق فيصبح عبداً".

إذ لا نتوقع شيئاً من جذع ميِّت، فليس للإنسان الغافل إلا جهنم ينتظره؛ وأما المؤمن الذي يمتلك قلباً حياً، وعينَين يقظتَين ومفتوحتَين على الحقائق، وأذنَين موجَّهَتَين لسماع الخير والحق، فإنه يبدأ بالنضج بالحقائق التي أدركها ثم يحترق في النهاية. ولا شك أن احتراقه ليس

إن الإنسان الرحيم برَّاق أكثر من قطرات المطر، ولطيف أكثر من الزهور، ويبعث الطمأنينة والسكينة في القلوب بالقول اللين.

كاحتراق الحطب الذي يتحول إلى رماد، فهو ليس احتراق فناء، وإنما هذا الاحتراق يحوِّله إلى حال العبد الذي يكون مستحقاً للثناء المتجسد بعبارة "نِعمَ العبد". هو احتراق يؤدي إلى الفناء في المحبوب.

يصف الشاعر والمفكر الكبير محمد إقبال حالَ الباقين بعيداً في الظلمات، وحالَ الذي يسارعون إلى النور، فيحترقون بالمحبة ويتحولون إلى النور عن طريق الحوار التخيلي الآتي:

سمعت في إحدى الليالي وأنا جالس في مكتبتي عثةً تقول لفراشة:

- "مكثتُ في كتب ابن سينا، ورأيتُ مؤلفات الفارابي، [فتنزهت بين سطورها الجافة وبين الأحرف الباهتة لتلك السطور التي لا تكاد تنتهي وقضمت منها الكثير. وتجولت في مدينة الفارابي الفاضلة حياً حياً، وزقاقاً زقاقاً] لكنني لم أفهم منها أبدًا فلسفة هذه الحياة. إنني أفتقر إلى شمس تضيء أيامي..."

وحينما سمعت الفراشة صيحة تلك العثة، أرتْهَا أجنحتها المحروقة وقالت:

"انظري، لقد أحرقت أجنحتي من أجل العشق". ثم قالت:

"إن الذي يجعل الحياة أكثر حيوية ونشاطًا إنما هو هذه المحبة وخفقات الفؤاد، والذي يجعل طائر الحياة يرفرف إنما هو العشق!".

إذا أراد الإنسان أن تنعكس الرحمة على شخصيته، فلا بد أولاً من التخلص من الأهواء والرغبات النفسانية؛ ولا بد من ترقي القلب بالملكات والصفات الروحانية، أي تزيين القلب بالفضائل الكريمة مثل الكرم، والرحمة. عندها يصل الإنسان إلى حال يشعر فيها قلباً وعقلاً بأنه تحت مراقبة الله ﷻ.



أي إن الفراشة كانت تقول للعثة بلسان حالها وهي تظهر لها أجنحتها المحروقة:

"أنقذي نفسك من الهلاك في أزقة الفلسفة المسدودة! وحلِّقي نحو الوصال ناهلة من بحر المعاني المملوء بالعشق والوجد والفيوضات في كتاب المثنوي!".

ففي هذا المشهد التخيلي يُشبِّه محمد إقبال أصحابَ العلم الجاف المجرد من العمل، أمثال العلماء المتفلسفين المحرومين من الإخلاص والتقوى بِالعث؛ وأما العارفون العاملون بعلمهم من أصحاب القلوب العاشقة الفَيَّاضة بالتقوى والخشية والمحبة فيُشبِّههم بالفراشة.

إذا أراد الإنسان أن تنعكس الرحمة على شخصيته، فلا بد أولاً من التخلص من الأهواء والرغبات النفسانية، أي من الخصال السيئة والخبيثة مثل الكبر، والأنانية، والغيبة، والنميمة، والافتراء، والكذب، والإسراف، والبخل وغيرها؛ ولا بد من ترقي القلب بالملكات والصفات الروحانية، أي تزيين القلب بالفضائل الكريمة مثل الكرم، والرحمة، والشفقة، والخدمة، والتواضع، والصبر، والأدب، والحياء، والوقار. عندها يصل الإنسان إلى حال يشعر فيها قلباً وعقلاً بأنه تحت مراقبة الله سبحانه وتعالى.

الإنسان الرحيم ينشر الطمأنينة والسلام في المكان الذي يمر به، ويعمل ليكون ممثلاً لسيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين. وهو شخص قد قضى على أنانيته، ويسعى ليكون مثل المطر رحمة على القلوب القاسية، ويؤثر أخاه على نفسه في كل خير.

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله ﷺ:

"**المرء مع من أحبَّ**". (البخاري: الأدب، ٩٦؛ مسلم: البر، ١٦٥)

فأين نحن من هذه المحبة؟ وكم تقلقنا خشية فراقه عليه الصلاة والسلام في الآخرة؟

إن عرفنا رسول الله ﷺ اليوم فإنه سوف يعرفنا غداً في المحشر، ويستقبلُنا عند حوضه؛ وإذا نظرنا إليه بقلوبنا، فإنه أيضاً سوف ينظر إلينا؛ وإذا استمعنا إليه، فإنه سوف يغمرنا بإحسانه.

فعلينا أن نكون أتباعه حتى يكون علينا شاهداً، ولنا شفيعاً كما أخبر بذلك القرآن الكريم:

﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ (البقرة: ١٤٣)

وكان سيدنا محمد ﷺ يحب الصمت والتفكر كثيراً.

تقول هند بن أبي هالة:

"كان رسول الله ﷺ متواصلاً للأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه،

يقول الشاعر فضولي البغدادي:

"لا يرهقنَّ البستاني نفسه في سقاية بستان الورود! فإنه وإن سقى ألف بستان، فلن تتفتَّح وردةٌ مثل جمال وجهك يا رسول الله".



ويتكلم بجوامع الكلام، لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر". (ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١، ٤٢٢ – ٤٢٣)

ويحثُّ النبي عليه الصلاة والسلام أمته على التفكر فيقول:

"كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعوّدوا قلوبكم الرِّقَّة، وأكثروا التفكر والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء". (أبو نعيم: حلية الأولياء، ١، ٣٥٨)

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام أحياناً يجيب عن أسئلة أصحابه بإجابات تحثهم على التفكر، ومن ذلك ما يقوله أبو رزين رضي الله عنه:

أتيت رسول الله يوماً فقلت:

- يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

- " أما مررت بوادي أهلِكَ مَحْلاً؟ ثم مررت به يهتز خَضِراً؟ ثم مررت به مَحْلاً؟"

قلت:

- بلى! فقال:

- "فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه". (أحمد: مسند، ٤، ١١)

إن الله سبحانه وتعالى قدَّمَ نموذج "الإنسان الكامل" الذي أراده بخلق الإنسان في شخصية النبي عليه الصلاة والسلام، وجعله قدوة للبشر جميعاً.

والذي علَّمَ هذا المثل هو الحق سبحانه وتعالى، إذ يقول في سورة الروم:

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠)

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن الكريم بوقار، ويتفكر ملياً بمعاني الآيات الكريمة، ويسارع إلى تطبيق الأوامر الإلهية الواردة فيها. وعندما يصل إلى الآيات التي تتحدث عن تسبيح الله تعالى، كان يسبح الله ﷻ بعبارات مثل "سبحان الله". وإذا ما تلا آياتٍ تحتوي على الدعاء، كان يناجي بها ربه سبحانه وتعالى. وعندما يتلو الآيات التي تتحدث عن الالتجاء إلى الحق سبحانه وتعالى، كان يسارع في الحال إلى الالتجاء والتضرع إليه.

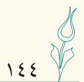
وفي بعض الأحيان كان عليه الصلاة والسلام يعيد تلاوة آيةٍ ما، ويتفكر ويتضرع بها حتى يطلع عليه الصباح.

ومن ذلك ما يرويه لنا أبو ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فردَّدها حتى أصبح:

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(المائدة: ١١٨. النسائي: الافتتاح، ٧٩؛ أحمد: ٥، ١٥٦)

نستطيع أن نبيِّن علاقة النبي ﷺ بالكون من خلال التشبيه الآتي فنقول: ليس المراد من شجيرة الورد الجذع، ولا الأغصان، ولا الأشواك، ولا الأوراق، وإنما المراد منها الوردة فقط. ومصاحبة الأوراق لتلك الوردة شرفٌ كبير لها، وخدمة الجذع لتلك الوردة نعمة كبيرة له.



ويخبرنا رسول الله ﷺ بالأمور الآتية عن صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام العشرة، فيقول:

"**على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب**".(أبو نعيم: حلية الأولياء، ١، ١٦٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١، ١٢٤)

وقال الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه:

"تفكر ساعة خير من قيام ليلة". (الديلمي: ٢، ٧٠ – ٧١، رقم: ٢٣٩٧، ٢٤٠٠)

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يستخرج من كل شيءٍ ينظر إليه عبرة، ثم يتوجه إلى ربه عز وجل ولسانه يلهج بالحمد والشكر.

فينبغي لنا أيضاً أن نشاهد في كل شيءٍ نراه أمامنا العظمةَ الإلهية، وأن نحاول جاهدين إيجاد الغذاء الروحي لعالَم أفكارنا وأحاسيسنا. وعلى المسلم إذا ما نظر إلى الشمس والقمر والغلاف الجوي، وإلى خلقه وأجداده وأولاده- أي إذا ما نظر إلى أي شيءٍ حوله- أن يُدركَ الرسائل الإلهية بِعين قلبه. وينبغي له أن يفكر من أين أتى وكيف، وكيف يستمر بحياته، ومَن الذي ركَّبَ صورته، ومَن الذي حدَّد عمره، وإلى أين يسير،

إن القلب الذي ليس فيه محبة للنبي ﷺ ورغبة في اتباعه يستحق صاحبها العذاب. فالإنسان إن أضاع جوهرةً، فلَن يأبَه لصندوقها أو محفظتها، لأنها ستصبح بلا قيمة بعد ضياع الجوهرة.

وأن الحياة والكون لا يخلوان من الحكمة، وبأنه لا شيء في الكون خُلِقَ عبثاً، وأنه غير طليق وبلا مسؤولية، ثم يلاحظ دائماً آثار العظمة والقدرة الإلهية.

يصوِّر الله تبارك وتعالى تفكرَ المؤمنين في القرآن الكريم فيقول:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١)

ذات ليلة جاء بلال رضي الله عنه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقت السحر، فوجده يبكي بكاءً شديداً وقد ابتلت لحيته وثوبه، وحتى مكان سجوده بالدموع المنهمرة من عينيه الشريفتين. فقال له:

يا رسول الله، لمَ تبكِ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال رسول الله ﷺ:

"أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد أُنزِلَت عليَّ الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (ابن حبان: صحيح، ٢، ٣٨٧)

يعبر الشاعر نجيب فاضل عن سر حقيقة رسول الله ﷺ بقول مختصر: "إننا موجودون بسببه".

فكافة المخلوقات تدين بالشكر لنور الوجود الذي قال عنه الحق ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)



نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الذين يتلون القرآن الكريم بتذكُّر، ومن الذين ينظرون إلى الكون بتفكر.

ونسأله أن لا يحرمنا من الاقتداء بأسوتنا الحسنة رسوله الكريم ﷺ.

آمين!



يقول الشاعر محمد عاكف:

كلُّ ما في الدنيا هِبةٌ لأجل خاتم المرسلين

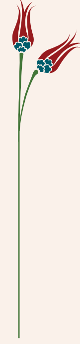
مديون له المجتمع والفرد كل حين

مديون لهذا المعصوم الناس أجمعين

فاحشرنا يا رب بهذا الإقرار يوم العرض المبين.

مدرسة التفكر

التفكر في العمر والحياة بنعمتَي الوقت والعلم



ثمة ناصحان للإنسان بشأن غفلته عن الموت وهروبه منه: أحدهما ينادي الإنسان بأجمل الكلمات وأدق العبارات، والآخر ينصحه بلسان الصمت.

الأول هو القرآن الكريم، والآخر هو الموت.

وخير شاهد على هذا الحال حجارة القبور التي تصرخ ولا يسمعها الإنسان.



....



مدرسة التفكر

التفكر في العمر والحياة بنعمتَي الوقت والعلم

النعمة التي أقسم بها الحق سبحانه وتعالى

إن ذات الحق سبحانه وتعالى مترفعة، ومتعالية، ومنزهة عن إدراكنا... ومن صفات الحق سبحانه وتعالى التي تدل على عجزنا وقصورنا عن إدراكه:

صفة "مخالفة الحوادث"، إذ إنه ﷻ لا يشبه أحداً من مخلوقاته أبداً...

والله جل جلاله منزه عن الزمان والمكان... وهو الأول، والآخر، والباقي، والوارث...

وقد خصَّ ذاته العلية بصفتَي "الخلق والبقاء"، فلم تتجليا في أي من الكائنات. وجعل جميع المخلوقات مقيَّدة بحدود الزمان والمكان. فالإنسان والملائكة والحيوانات وكافة الأشياء خاضعة لقيد الوقت،

إذ قدَّرَ الله تعالى لكل منها عُمْراً معيناً، فقدَّرَ للأحياء الأجل، وقدَّرَ للموجودات الأخرى قيام الساعة.

وأما بالنسبة للإنس والجن فإن حقيقة الوقت والعمر تحمل معنى أكبر وأوسع مما لدى الأحياء الأخرى. لأن المخلوقات الحية الأخرى عندما تكتمل أعمارها، وتؤدي وظائفها تنتهي وتنسحب من ساحة الوجود؛ وأما الإنسن والجن فإن الوصول إلى ختام العمر لا يشكِّل نهاية لهم، وإنما يُعَدُّ انتقالاً إلى العالم الأبدي. وطبيعة هذا العالَم الأبدي الذي تُنقَل إليه الإنس والجن- أي هل هي نعيم أم عذاب- مرتبطة بكيفية استعمال رأسمال العُمر الممنوح لهم في الحياة الدنيا.

ثمة مقياسان موجودان دائماً في السماء من أجل تمكين الإنسان من حساب الوقت، وهما الشمس والقمر اللذان يجريان في السماء نحو هدفهما المقدَّر ضمن المدار الذي حدَّده الله تعالى لهما...

وكل ذلك وسيلةٌ لتفكر الإنسان...

مرآة العِبرة

مع ولادة كل فجر جديد تُفتَح صفحة بيضاء جديدة من صفحات دفتر العمر. فماذا سيُدوَّن في تلك الصفحة التي سوف تُتلَى على الأشهاد في المحشر؟

مع ولادة كل فجر جديد تُفتَح صفحة بيضاء جديدة من صفحات دفتر العمر. فماذا سيُدوَّن في تلك الصفحة التي سوف تُتلَى على الأشهاد في المحشر؟



إذا نظرنا إلى السماء وقت الظهيرة، نرى استواء الشمس في كبد السماء فوق التلال والقمم، وأشعتها القوية، ثم نرى على الأرض ظلالها، فكأن هذه المناظر تُذكِّرنا بذلك اليوم العظيم، غير أنه لا ظل في ذلك اليوم إلا لفئة من الناس.

ووقت العصر يشير إلى مرور الزمن، ولكن من جانب آخر يُعَدُّ تنبيهاً لتناقصه ونفاده، وذلك من خلال الظلال الممتدة، والاصفرار الذي يذكِّر بالوصول إلى المنزل المقصود قبل لحظات من تخييم الظلام...

ووقت الغروب يقدِّم مشهداً رهيباً ورائعاً بألوانه العجيبة التي تصبغ الآفاق، هذا المشهد الذي يُذكِّر بيوم القيامة حين ينهار الكون بأكمله...

وكل ليلةٍ تُعَدُّ سِراً ولغزاً... ففي الليل تظهر عظمة السماء المتلألئة بالنجوم، بعد النهار المليء بالصخب والضجيج والبهرج المادي...

والخريف يرمز للفناء، والشتاء للموت والقيامة، والربيع للبعث من جديد، والصيف للحصاد الأبدي.

إن التقويم الذي في السماء لا يتوقف أبداً. أما التقويم الذي على جدران بيوتنا فإنه ينتهي ويزول... والسنوات تتعاقب وتتغير، والشهور والأسابيع تنتهي. ويحتفل الغافلون في نهاية كل عام، ويفرحون ويمرحون بدعوى أنهم يبدؤون عاماً جديداً من عمرهم؛ أما القلوب العارفة فتكون

إذا نظرنا إلى السماء وقت الظهيرة، نرى استواء الشمس في كبد السماء فوق التلال والقمم، وأشعتها القوية، ثم نرى على الأرض ظلالها، فكأن هذه المناظر تُذكِّرنا بذلك اليوم العظيم، غير أنه لا ظل في ذلك اليوم إلا لفئة من الناس.

شديدة الحزن والقلق وهي تتساءل: "كيفَ كان دفتر أعمالنا في العام الماضي؟"

فمن أين تأتي كل هذه الأوقات، وإلى أين تسير؟ وأين وكيف ستنتهي؟

إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا من خلال الآيات الأولى النازلة إلى التفكر بالفناء الموجود في كل شيءٍ، فيقول:

﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (العلق: ١)

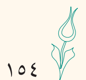
أي اقرأ كل حادثة وكل وقعة، وليكن قلبك في كل حادثة مع الله ﷻ.

وهذا أعظم مكرمة إلهية للذين ترتقي قلوبهم، فالله تبارك وتعالى بهذا القدر من الحِكَم والإشارات الإلهية يُذَكِّر الإنسان بعظمة ذاته العلية وبلطفه بعباده، ويلفت انتباه الإنسان أيضاً إلى الآخرة وفناء هذا العالَم.

فينبغي ألا تغيب هذه الآية المباركة عن عقل الإنسان ولو للحظة واحدة. إذ ينبغي أن تعيش قلوبنا أمام كل شيءٍ وحادثة نصادفها ونشاهدها في الكون حالَ الوجل التي يشير إليها المولى ﷻ بقوله: ﴿**وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ (الأنفال: ٢) ، أي ينبغي أن ترتجف قلوبنا وترتعش. وهذه الحال تُعد أبرز علامة على ارتقاء القلوب.

ويجب أن ندرك عندما نتلو تلك الآية أن:

وقت الغروب يقدِّم مشهداً رهيباً ورائعاً بألوانه العجيبة التي تصبغ الآفاق، هذا المشهد الذي يُذكِّر بيوم القيامة حين ينهار الكون بأكمله..



العمر رأسمال

الوقت رزق، والعمر لطف، مَثلهما مَثل الغيث النازل من السماء، والنباتات التي تنبت من الأرض؛ رزقٌ محدد بقدر معلوم. فالحق سبحانه وتعالى يهب الأعمار لعباده من فضله وكرمه.

ينبغي للإنسان أن يشاهد علامات الفناء المنقوشة في كل مكان من هذا الكون، وعليه أن يستثمر كل لحظة على أتم وجه مع اليقين التام بأنها تُعد أثمن نعمة بين يديه، وعليه أن يكون مستعداً على أكمل وجه. عليه أن يضع جانباً الطبيعة المفزعة للأجَل ويقضي عليها تماماً، ويُجَمِّل الموت في عينيه. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥؛ الأنبياء: ٣٥)

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦)

إن الإنسان لا يدرك قيمة النعم التي بين يديه بحق إلا إذا فقدها. ويبين الله تبارك وتعالى هذه الندامة التي تصيب الإنسان في لحظات لفظ أنفاسه الأخيرة على ما فوَّته من فرص، والفزعَ الذي يظهر عليه بقوله:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠)

كل ليلةٍ تُعَدُّ سِراً ولغزاً...
ففي الليل تظهر عظمة السماء المتلألئة بالنجوم، بعد النهار المليء بالصخب والضجيج والبهرج المادي...

وقال النبي عليه الصلاة والسلام محذِّراً أمتَه:

"ما من أحد يموت إلا ندم!"

قالوا:

- وما ندامته يا رسول الله؟

فقال النبي عليه لصلاة والسلام:

"إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نَزَعَ".(الترمذي: الزهد، ٥٩ / ٢٤٠٣)

فلا يمكن لأحد الادِّعاء بأنه قد استثمر عمره على الوجه الأكمل.

إذا لم يسعَ الإنسان للوصول إلى النضج في ذاته، فإنه يمر بتقلبات مختلفة خلال مراحل حياته الممتدة من المهد إلى اللحد. فحياة الغفلة إنما هي لعبٌ في الطفولة، وشهوة في المراهقة، وضياع في البلوغ، وندامة وتحسر على ما فات في الشيخوخة.

والاستقامة هي إدراكُ حقيقة حفظ العمر من هذا الغبن الواقع عليه بأقرب وقت ممكن، وتوجيه الحياة بما يتوافق مع رضا الله تعالى.

إن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نؤدِّي واجب العبودية بأقصى ما نملكه من طاقة وجهد. ولا يطلب منا ذلك فقط في مرحلة من مراحل

كان الأمر الإلهي الأول للإنسان هو: "اقْرَأْ"، وذلك قبل أي أوامر أخرى مثل: آمِنْ، أو أسلِمْ، أو اُعبُدْ، أو تخلَّقْ بالأخلاق الحميدة.



العمر، وإنما يريد منا ذلك إلى أن نموت، إلى أن نلفظ آخر نَفَس في حياتنا. ولهذا لا بد من حماية نعمة العمر والمحافظة عليها واستثمارها بشكل تام دون ترك مجال للغفلة ولو للحظة واحدة.

حتى ثوانيه

عندما يقع بين يدي الإنسان شيء ثمين مثل الذهب، فإنه يحافظ عليه ويتمسك به، فلا يتساهل حتى بذرة واحدة منه. وكلٌّ من البائع والمشتري يستخدم في وزنه أدقَّ آلات الوزن.

وهذا هو حال الوقت، إذ يُعد الوقت أعظمَ النِعَم. ويُعدُّ الإنسان محافظاً على هذه النعمة على قدر استثماره لكل يوم وساعة ودقيقة منها في سبيل تحقيق رضا الله تعالى، ويسجِّل هذا الاستثمار ربحاً أبدياً في دفتر أعماله.

إن النفس لا تريد الفناء أبداً، فهي في حال عصيان ورفض دائم للفناء. لذلك تتهرب من حقيقة الموت، وتتجنب قراءة علامات الفناء المنقوشة على كل شيءٍ في الكون. مع أن الموت بوابة المرور إلى العالم الأبدي، وما يحدث في تلك البوابة إنما هو بداية الخلود.

اقرأ الحكم الموجودة فيك.
اقرأ أسرار الكون، أي تصفح صفحات كتاب الكون واحدة واحدة، واقرأها بعين قلبك.
اقرأ بتعمق الأسرارَ والحكم والحقائق الكامنة في القرآن الكريم.

ثمة ناصحان للإنسان بشأن غفلته عن الموت وهروبه منه: أحدهما ينادي الإنسان بأجمل الكلمات وأدق العبارات، والآخر ينصحه بلسان الصمت. الأول هو القرآن الكريم، والآخر هو الموت.

وخير شاهد على هذا الحال حجارة القبور التي تصرخ ولا يسمعها الإنسان.

وكفى بالموت ناصحاً للإنسان، حتى إن لم يكن له ناصح آخر.

فالحياة تجد خير تعريف لها في الصرخات الصامتة تحت أحجار المقابر وترابها الرطب.

وكما أن هناك تقويمات زمنية في السماوات وعلى الجدران، فإن هناك تقويماً أيضاً للعمر وموجود بداخله.

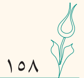
فالإنسان يُخلَق من العدم ويبدأ الحياة بفصل الشباب والحيوية والعنفوان مثل قدوم ربيع أخضر نضر ومزهر في أعقاب فصل الشتاء، ثم بعد ذلك يصل إلى البلوغ والكمال والرشد. وعندما يتقدم الإنسان في العمر أكثر فإن أحواله تنعكس، إذ يفقد جسمه تدريجياً طراوته ونضارته، ويبدأ ظهور الضعف والعجز عليه، ويصل رويداً رويداً إلى حال لا يعلم فيها شيئاً. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٨)

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)

أي: اقرأ كل حادثة وكل وقعة، وليكن قلبك في كل حادثة مع الله تعالى.

وهذا أعظم مكرمة إلهية للذين ترتقي قلوبهم.



أي إن الإنسان لا ينال البقاء بطول العمر في الدنيا الفانية. ورغبتُه بالخلود هي في الأساس إشارةٌ إلى أنه راجع إلى عالم الآخرة. فالذين يستطيعون النظر إلى الدنيا بمنظار العرفان لا يجدون فيها قيمةً غير كونها رأسمال الآخرة؛ ذلك أن موطننا الأصلي إنما هو الآخرة.

إنما العيش عيش الآخرة

ينبغي ألا ننسى أبداً أن قضاء العمر بالمعاصي والسيئات بعيداً عن تحقيق رضا الله تعالى يمنع الإنسان من دخول الجنة. وكلما زاد الإنسان من خطاياه، قلَّت فُرص دخوله الجنة. وما يُزيد إدراكه لهذا الأمر إكثاره من التفكر بالموت، إذ يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"**أكثروا من ذكر هاذم اللذاتِ الموتِ**".(الترمذي: القيامة، ٢٦)

يقول الإمام الرباني قدس الله سره:

"الموت ليس بمصيبة، وإنما المصيبة الجهلُ بما يلقاه الإنسان بعد الموت".

ويقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

"ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل".(البخاري: الرقاق، ٤)

إن النيران، سواء لهب الشمس التي في السماء، أو نار الأفران، أو الشمعة، سوف تُذكِّر المؤمن دائماً بنار جهنم، فيعمل على تجنُّب غضب الله، والالتزام بالتقوى.

فالدنيا لا تبكي على الغافلين عن الله في أعمارهم التي تذروها رياح الجهل، ولا الآخرة المقبلون عليها تبتسم في وجوههم.

إن التاريخ أعظم لوحة إرشاد وعبرة للبشر جميعاً بصفحاته الذهبية الناصعة، وبمشاهد الظلم الحالكة الظلام. فالشمس التي نراها في سمائنا هي الشمس ذاتها التي أضاءت لمدة من الزمن صروح فرعون، وهامان، ونمرود، وعاد وثمود، ثم أشرقت ببهائها وهيبتها على خرابها ودمارها. والملوك والطغاة والجبابرة الذين كانت حتى أسماؤهم تُذْكَر لمدة من الزمن بكل هيبة وخوف أصبحوا بعد ذلك عرضةً للانتقام الإلهي.

والقلوب التي لم تنرها شمس الإيمان كالأماكن التي تسودها الحرائق، أما القلوب المُضَاءة بشمس الإيمان فهي كالموطن الذي يسود فيه ربيع السعادة الأبدية.

يبين جعفر الصادق حالَ أبناء الدنيا والآخرة في الدنيا بقوله:

"يقول الله ﷻ للدنيا: يا دنيا، اخدمي من خدمني [أي الذين يسعون في سبيل الله]، وأتْعِبي من خدمك [أي الذين يتبعون الأهواء والرغبات النفسية]".

ولا بد للعبد من أن يكون دائم التأمل والتفكر لكيلا يبذِّر نعمة العمر، بل يستثمرها بالعبودية لخالقه.

قال رسول الله ﷺ:

"من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزد من الله إلا بعداً".

(السيوطي: الجامع الصغير، ٢، ١٦٩)



ومن المكرمات التي تفضل الله تعالى بها على عباده لتوسيع آفاق التفكر والتأمل لديهم صفةُ العلم، هذه الصفة التي خصَّ بها الإنسانَ وحده دون سائر المخلوقات الأخرى. ووهبَ الحق ﷻ الإنسانَ العلوم النافعة له، فأي شيء يراه الإنسان في هذا الكون من الذرات إلى المجرات عندما يضعها تحت مجهر العلم إنما هو قدرة الله تعالى وغاية الخلق.

والعلم هو اكتشافُ مجموعة من المبادئ والقواعد الكامنة في الحوادث والأشياء، والذي وضعَ هذه القواعد هو الحق سبحانه وتعالى. فهذا العلم لا يُكسِب الإنسانَ شيئاً بشأن الحقيقة والآخرة، لأن فائدة العلم الذي لا يستطيع الخروج عن إطار الدنيا تبقى محصورة في حدود العمر، فهو يحقِّق للإنسان شيئاً من مكاسب دنيوية مثل المهنة، والمكانة الاجتماعية، والشهرة، ولكنه يُفوِّت عليه كثيراً من المكاسب في الآخرة.

يقول يونس إمره في هذا الشأن:

العلمُ معرفةُ العلم
العلمُ معرفةُ الذات
فإن لم تعرف ذاتك
فلِمَ القراءة!

ينبغي أن نتساءل:

أين يقودنا علمنا؟

يقول يونس إمره:
العلمُ معرفةُ العلم
العلمُ معرفةُ الذات
فإن لم تعرف ذاتك
فلِمَ القراءة!

إلى أين يقرِّبنا العلم؟

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"**من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً**".(السيوطي: الجامع الصغير، ٢، ١٦٩)

ويقول الغزالي في وصيته لابنه، التي وكأنها شرحٌ لهذا الحديث النبوي:

"أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم أن علماً لا يُبعِدُك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يبعدك غداً عن نار جهنم".

فنعمة العلم أيضاً مثلها مثل نعمة العمر ينبغي صرفها في المكان الصحيح. فإذا لم يتحقق ذلك، فإنه سوف يؤدي إلى نتائج سيئة على الإنسان، إذ إن للعلم غير النافع آثاراً سلبية كثيرة مثل الكبر والعُجب، وهذه الآثار تقود الإنسان إلى مخاطر شديدة. لذلك يقول أبو حازم الذي يُعد أحد علماء السلف:

"كل نعمة لا تُقرِّب من الله فهي بليَّة".

فالهدف من العلم، أي من اكتشاف القواعد الإلهية الكامنة في الكون، هو القدرة على الانتقال من تلك القواعد إلى العظمة الإلهية للحق ﷻ وتجليات قدرته، ونيل نصيب من "معرفة الله" في القلب.

> لا يمكن للمجتمعات الوصول إلى السلامة بالفلسفات المحشوة في الكتب المغبرَّة على رفوف المكتبات. وإنما الذي سيوصل الناس إلى بر السلامة والسعادة الحقيقة هو القلوب التي تصل إلى النضج والكمال بالحكم المستقاة من وحي القرآن والسنة.



فإذا خدَم العلم هذا الهدف كان نافعاً للإنسان، إذ إنه سيقوِّي إيمان المؤمن، ويسهِّل له طريق إدراك الغاية الحقيقية للحياة.

لذلك كان الأمر الإلهي الأول للإنسان هو: "اقْرَأْ"، وذلك قبل أي أوامر أخرى مثل: آمِنْ، أو أسلِمْ، أو اُعبُدْ، أو تخلَّقْ بالأخلاق الحميدة.

وهذا الأمر يعني:

اِقرأ الحِكم الموجودة فيك. اِقرأ أسرار الكون؛ أي تصفح ورقات كتاب الكون واحدة واحدة واقرأها بعيون قلبك. اِقرأ بتعمق الأسرار والحكم والحقائق الكامنة في القرآن الكريم.

فالإنسان الذي يستطيع جمعَ هذه القراءات الثلاث، سيخِرُّ ساجداً لمولاه. وإذا حافظ على هذا التفكر حيًّا بين جوانحه، سيبلغ أسرار الحقيقة المطلقة، ويحيا بمحبة الله سبحاته وتعالى، ويجد لذة قول الله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

إن النيران، سواء لهب الشمس التي في السماء، أو نار الأفران، أو الشمعة، سوف تُذكِّرُه دائماً بنار جهنم، فيعمل على تجنُّب غضب الله، والالتزام بالتقوى.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:
"أيها الولد، العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون. واعلم أن علماً لا يُبعِدُك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يبعدك غداً عن نار جهنم".

وأي بستان، أو نهر يصادفه، أو بلبل يسمع نغماته سوف يُذكِّر بالجنة، وبضرورة تنفيذ الواجبات المفروضة عليه.

والنعم التي يشاهدها تزيد من شكره، وآثار القدرة والعظمة التي يراها تزيد من خشيته.

فالقرآن الكريم يدعونا دائماً إلى التفكر والعلم بهذا المعنى، واستخلاص العبر والعظات.

والقرآن الكريم يحتوي على العلوم كلها، لكن جوهرها، وبجوانبها التي تتضمن الحكمة والأسرار.

يسأل الله تبارك وتعالى الذين لا يدركون الحِكَم والعبر أمام هذه التجليات الإلهية، فيقول:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ١٨٠)

إن القرآن الكريم يُعلِّمنا ويُطلِعنا على جانب الحكمة والعبرة للعلم من خلال طرح الأسئلة التي تقود إلى محاسبة النفس والمواعظ التي تفك أقفال القلوب.

يقول أبو حازم أحد علماء السلف:

"كل نعمة لا تُقرِّب إلى الله فهي بليَّة".



حكمة العلم

تبيِّن الآيات التالية مراحلَ تكون الإنسان في بطن أمه بكل خطواتها:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤)

لم تكن هذه التفاصيل في ميدان علم الأجنة معروفة على الإطلاق في العصر الذي نزل فيه القرآن الكريم. والأصل أن معرفة هذه التفاصيل لا تُلزِم إلا أهل الاختصاص في علم الطب والعلوم المشابهة. وأما ما يُلزِم عامة الناس فهو إدراك حِكَم الخَلق وأسراره في هذه المعجزة، والسعي لأداء شكرها.

إنَّ شكَّ الإنسان بالحشر والآخرة، وإصراره على إثارة الشبهات والتساؤلات حول كيفية إعادة إحياء العظام البالية يدلُّ على أنه لم يفكر أبداً بخلقه أول مرة. إذ عندما يدرك هذا الإنسان كيف خُلِقَ من نطفة أول مرة على أحسن تقويم، فإنه يدرك مدى يُسْرِ إعادة بعث الكائن من جديد على الخالق الذي أوجده أول مرة وأماته.

إن التاريخ أعظم لوحة إرشاد وعبرة للبشر جميعاً بصفحاته الذهبية الناصعة، وبمشاهد الظلم الحالكة الظلام. فالشمس التي نراها في سمائنا هي الشمس ذاتها التي أضاءت لمدة من الزمن صروح فرعون، وهامان، ونمرود، وعاد وثمود، ثم أشرقت ببهائها وهيبتها على خرابها ودمارها.

يقول الله ﷻ عن المُشكّكين والمنكرين:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٧-٧٩)

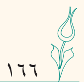
إذا ما نظرنا إلى التراب الذي نسير عليه اليوم من زاوية الماضي وأمعنا التأمل والتفكير، ندرك بأننا نطأ على ملايين بل مليارات من أبدان البشر الممزوجة بالتراب، أولئك الذين عاشوا وماتوا عبر العصور منذ عهد آدم عليه السلام، وتراكم بعضهم فوق بعض كالظلال.

وإذا ما نظرنا إلى التراب ذاته من زاوية المستقبل فنستطيع هذه المرة أن نشاهد مليارات من البشر الذين سوف يأتون إلى هذه الدنيا ويسيرون عليه. وكأن على هذا التراب تتموضع ظلال متداخلة لمليارات من الناس السابقين، ولمليارات من الناس القادمين في المستقبل.

إنه مسار عجيب، بدايته التراب ومنتهاه التراب!

حضرَ مولانا جلال الدين الرومي وحسام الدين جلبي ذات مرة جنازة رجل، فأخذ المُشيِّعون يتجادلون في دفن الميت مع التابوت أو من غيره. فنطقَ حسام الدين جلبي بقولٍ ذكَّرَ به بالعلاقة بين الإنسان والتراب إذ قال:

إن مشهدَ الطائر الجريح المكسور الجناح يُعد للقلب الرقيق مشهداً يستدعي الرحمة والشفقة، إلا أن هذا المشهد ذاته مشهد مفرح لهرَّةٍ جائعةٍ فهي ترى في ذلك الطائر صيداً سهل المنال.



"لندفنه من غير تابوت، فالتراب كالأم للإنسان، وأما الشجر فكالأخ. لندفن الميت بين أحضان أمه، وليس بين أحضان أخيه".

والحق أن الإنسان والشجر كالإخوة من حيث المنشأ والوجود المادي، لأن أجسادنا تراب، وطعامنا تراب. وكذلك فإن الإنسان يُعد تراباً لاعتماده على الأطعمة الناتجة عن التراب عندما يكون في صلب أبيه، وعند نموه في رحم أمه. وهذا الجسم الذي هو كاللباس لروحنا تراب ومن التراب.

وانطلاقاً من ذلك دعونا نتأمل ونتفكر بالتراب من نافذة الرزق:

يُعِدُّ التراب في كل لحظة الموائدَ لمليارات المخلوقات، وهذه المخلوقات تلقي بفضلاتها وفي النهاية بأجسادها على التراب. فالتراب يتولى الإطعام والتنظيف، ثم يسحق تحت أقدامه تلك المخلوقات كلها. ولكن مع ذلك تتفتح الأزهار على وجهه من جديد، وتنبع الأنهار من باطنه، والترابُ مع كل هذه الخدمات يتحلى بالصمت والتواضع.

ولهذا يقول مولانا جلال الدين الرومي مشيراً إلى هذه المعاني والصفات التي في التراب: "كن متواضعاً مثل التراب".

أي: كن مُؤْثِراً مثل التراب، كن مُنبِتاً مثل التراب، كن تراباً لتنبع منك الحياة!.

يُعِدُّ التراب في كل لحظة الموائدَ لمليارات المخلوقات، وهذه المخلوقات تلقي بفضلاتها وفي النهاية بأجسادها على التراب. فالتراب يتولى الإطعام والتنظيف، ثم يسحق تحت أقدامه تلك المخلوقات كلها. ولكن مع ذلك تتفتح الأزهار على وجهه من جديد، وتنبع الأنهار من باطنه، والترابُ مع كل هذه الخدمات يتحلى بالصمت والتواضع.

فالكون مجموعة من الأسرار، وسِرٌّ وراء سِرٍّ.

يدعو الله تعالى عباده دائماً إلى التفكر، والتيقظ، والتأمل، والاعتبار، وذلك بطرح أسئلة مثل:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾

إن غفلة الإنسان بقدر معين تحميه من الجنون، لأن الرحلة المفزعة، والعاقبة المجهولة مثل الموت، والقبر، والحشر، والحساب، والصراط التي تنتظر الإنسان تُصيبه بأشد القلق. فإذا ظل الإنسان يفكر بكل ذلك دائماً، فلن يستطيع تناول الطعام، ولا شرب الماء، وسيعجز عن متابعة مسيرة حياته من كثرة التوسل والتضرع والبكاء.

فنحن لا نستطيع أن نحيا إلا بشيءٍ من الغفلة والنسيان الذي هو من مظاهر رحمة الله تعالى بنا. فديننا الحنيف يريدنا أن نداوم على أداء مهماتنا ووظائفنا الحياتية في حال من التوازن بين الخوف والرجاء.

ولكن لا ينبغي أن تتحول هذه الحال إلى تجاهل وغفلة تامة عن الموت وما وراءه. فأهل الله يعيشون وهاجس الآخرة مخيم عليهم بصورة دائمة، ويحذرون من فقدان هذا الهاجس.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"أنت يا من تندهش وتنبهر أمام جمال الربيع، انظر مرة أخرى إلى اصفرار الخريف وبرودته".



قيل لإبراهيم بن أدهم ما بالنا ندعو فلا يُستجَاب لنا وقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)

قال: لأن قلوبكم ميتة،

قيل وما الذي أماتها؟

قال: ثمان خصال:

- عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه
- وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده
- وقلتم نحب رسول الله ﷺ ولم تعملوا بسنته
- وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦) فواطأتموه على المعاصي
- وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها
- وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها
- وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم، فكيف يستجيب لكم؟.

(الغزالي: إحياء علوم الدين: ٣، ٣٨)

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"إذا رأيت شروق الشمس الجميل عند تنفس الصباح، فتذكَّرْ غيابها الذي يُعَد موتاً وقت الغروب".

إن هذه الغفلة تبلغ حماقةً ما بعدها حماقة عندما يحفر الناس الذين يعلمون بأنهم ميتون قبورَهم بأنفسهم، ومع ذلك يغفلون عن الإعداد لهذه القبور. لهذا قيل:

"لا تجهِّز القبرَ لنفسك، وإنما جهِّزْ نفسك للقبر".

العبرة في كل الأشياء بالخواتيم، وفي ذلك يقول مولانا جلال الدين الرومي:

"أنت يا من تندهش وتنبهر أمام جمال الربيع، انظر مرة أخرى إلى اصفرار الخريف وبرودته.

إذا رأيت شروق الشمس الجميل عند تنفس الصباح، فتذكَّرْ غيابها الذي يُعَد موتاً وقت الغروب.

وإذا رأيت جمال البدر في الليلة المقمرة، فتذكر الضَّعْف الذي يمر به القمر نهاية الشهر، وحال الحسرة التي تصيبه.

إنَّ الإنسان يعيش أيضاً هذه الحال ذاتها، فكماله وجماله إلى زوال.

فعندما تنظر إلى طفل جميل تجده محبوب الناس جميعاً. ثم بعد مدة من الزمن تنقلب حاله إلى شيخوخة وخرف فيصبح محتقراً بأعين الناس.

إذا سحرتك الوجوه الجميلة ببشرتها الناعمة، فانظر إليها نظرةً بعد الشيخوخة حين تحفر فيها التجاعيد.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"يا مَن يسيل لعابك أمام الأطعمة اللذيذة، قم فاذهب إلى الخلاء، وانظر إلى عاقبة تلك الأطعمة".



ويا مَن يسيل لعابك أمام الأطعمة اللذيذة، قم فاذهب إلى الخلاء، وانظر إلى عاقبة تلك الأطعمة.

وقل للنجاسة: أين جمالك الأخَّاذ، وأين رائحتك الشهية ومذاقك اللذيذ عندما كنتِ في أجمل الأطباق؟

فتجيبكَ قائلة: كانت تلك الأشياء التي ذكرتها براعم، وكنتُ مصيدةً لك منصوبة. فعندما وقعت في المصيدة ذبلت البراعم وصارت هباءً منثوراً.

هناك أيادٍ ماهرة تحيِّر العقول بفنونها ونقوشها وحسن صنعتها، ثم تُصاب بالرعاش والرجفان فتفقد كل مزاياها.

وكذلك أيها الإنسان تجد عيناً حادة الرؤيا ولامعة مثل حجر الألماس، ثم في النهاية تجد أن ماءها بدأ بالسيلان، وفقدت قدرتها على الرؤيا حتى على بعد أمتار.

وكذلك تجد اليوم جندياً مغواراً مقداماً يخترق صفوف السباع بقلب لا يهاب الموت، ثم تراه عاجزًا يخاف حتى من الفأر.

وكذلك تجد الصانع الماهر الذي يأتيك بأجمل الأعمال، ثم بعد مدة تراه قد وقع ضحية العجز والضعف وتحول إلى مسكين لا يصلح لشيءٍ.

قل للنجاسة: أين جمالك الأخَّاذ، وأين رائحتك الشهية ومذاقك اللذيذ عندما كنتِ في أجمل الأطباق؟
فتجيبكَ قائلة: كانت تلك الأشياء التي ذكرتها براعم، وكنتُ مصيدةً لك منصوبة. فعندما وقعت في المصيدة ذبلت البراعم وصارت هباءً منثوراً.

وكذلك تجد الشعر المتموج اللامع والذي تنبعث منه أطيب الروائح التي تأخذ بالألباب، قد تحول في الشيخوخة إلى شعر قبيح ذميم مثل ذيل الحمار.

فانظر إلى الأحوال الأولى لهذه الأشياء وأمثالها حيث تكون في أوج لطافتها ونضارتها وجمالها، ثم تأمل المصير الذي آلت إليه في نهاياتها، وكيف بهتت وفقدت نضارتها.

لأن هذا العالم قد نصب لك مصيدته، وبها خدعَتْ كثيراً من الأرواح التائهة.

فانظر إلى كل جزء من هذا العالم، ثم قارن بين حاله في بدايته وحاله في نهايته التي وصل إليها!

إن كل إنسان يحقق القرب إلى الله بقدر تخلصه من أسر النفس ومن خداع سراب الدنيا.

انظر إلى وجه كل جميل متألق مثل القمر ومتباهٍ بجماله، ولكن كما نظرت إليه في بدايته انظر إليه أيضاً في نهايته كي لا تقع في الحماقة مثل الشيطان الذي ينظر بعين واحدة، أي ينظر إلى الجانب الدنيوي للشيء ولا ينظر إلى جانبه الأخروي.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"أيها الإنسان، يصدر من الدنيا نداءان يناقض كل منهما الآخر، فانظر إلى استعداد قلبك وأخبرني أيهما سيجيب؟
فأما أحدهما فيعبر عن حال المتقرِّبين إلى الله، وأما الثاني فيعبر عن حال المخدوعين. فإن قبلت أحد النداءَين، فإنك لن تسمع الآخر".



لقد رأى الشيطان طينَ آدم ﷺ، ولم يستطع أن يرى مقامه الرفيع. فنظرَ إلى طين الدنيا، إلا أنه عمي عن روحانية الآخرة. والجانب الذي لم يستطع الشيطانُ رؤيتَه هو خلافة الإنسان للحق سبحانه وتعالى.

أيها الإنسان، يصدر من الدنيا نداءان يناقض كل منهما الآخر، فانظر إلى استعداد قلبك وأخبرني أيهما سيجيب؟

فأما أحدهما فيعبر عن حال المتقرِّبين إلى الله، وأما الثاني فيعبر عن حال المخدوعين. فإن قبلت أحد النداءَين، فإنك لن تسمع الآخر.

ذلك أن المحب يصبح كالأعمى والأصم أمام الأشياء التي تناقض ما أحبه.

أيها السالك، انظر إلى النقش الأخير في المرآة! فكِّرْ بالقبح الذي يكون في شيخوخة الجميل، وبحال الخراب التي سيؤول إليها البناء، ولا تنخدعن بالكذب والزيف الذي يظهر أمامك في المرآة.

فطوبى للإنسان الذي سمع الصوتَ الذي سمعه أهل الحق سبحانه وتعالى قبل فوات الأوان".

إن أحد النداءَين المتناقضين اللذين ذكرهما مولانا جلال الدين الرومي هو الميل إلى الدنيا، والآخر النفورُ منها. فإن استمعتَ لأحدهما واستجبتَ له، فإنك تُحرَم من نقيضه لا محالة.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:
"أيها السالك، انظر إلى النقش الأخير في المرآة! فكِّرْ بالقبح الذي يكون في شيخوخة الجميل، وبحال الخراب التي سيؤول إليها البناء، ولا تنخدعن بالكذب والزيف الذي يظهر أمامك في المرآة".

وقد قيل:

"إن مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان. إن أرضى إحداهما أسخطَ الأخرى".

إن التراب والمطر الذي يضرب الله تعالى بهما المثل، وسر الحياة الذي لا يستطيع العلم مهما تطور حلَّ لغزه، والبحار التي سخَّرها الله تعالى لسفر الإنسان ونفعه... كلها أمور يتفكر فيها الإنسان.

يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)

وأما الفضاء الخارجي فهو مظهر آخر من مظاهر العظمة والدهشة. يدعو الله ﷻ الإنسانَ الذي يُعد كائناً بالغ الصغر فوق هذه الأرض إلى التفكر بالسموات، ويقسم بالقمر والشمس والنجوم والكواكب، ويدعوه إلى إدراك النظام الدقيق والمحكم الذي قدره الله العزيز العليم في الفضاء والذي لا يعتريه الخلل ولو بمقدار ملم واحد.

إن مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان. إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى.



لقد تقدَّمَ أهل الإنكار والضلال في العلم خلال القرون الأخيرة، وعكفوا على محاولة فك أسرار قدرة الحق سبحانه وتعالى واختراق جدار الفَنَاء. ولكنهم أصيبوا بالعجز أمام القدرة الإلهية في كلِّ خطوة أقدموا عليها، وطغَتْ عليهم الحيرة والدهشة. فلقد خرست ألسنتهم أمام بديع صنع الخالق وإن لم يعترفوا به.

هل ترى من فطور؟

والله ﷻ يدعو الإنسان في القرآن الكريم إلى الاعتراف بعجزه وضعفه، فيقول:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣-٤)

فما أعظمه من دليل على قدرة الخالق عزَّ وجل!

والنباتات التي تنبت من الأرض رزقٌ محدد بقدر معلوم. فالحق سبحانه وتعالى يهب الأعمار لعباده من فضله وكرمه.

الوقت رزق، والعمر لطف، مَثلهما مَثل الغيث النازل من السماء، والنباتات التي تنبت من الأرض؛ رزقٌ محدد بقدر معلوم. فالحق سبحانه وتعالى يهب الأعمار لعباده من فضله وكرمه.

إن ربنا سبحانه وتعالى يضرب لنا الأمثلة من الأشياء المحيطة بنا، إذ يعطي أمثلة من الأطعمة التي نتناولها، ويدعونا إلى النظر إلى خلقها بعين العبرة والتدبر والتفكر؛ أي إلى خلق الحيوانات، والثمار، والحبوب، والحليب، والعسل، وكل ما ننتفع به.

إلا أن الاستفادة من كل هذا التفكر والعبر ليست من عمل الدماغ، ولا العين، ولا الأذن. وإنما يلزم لهذه الاستفادة قلبٌ مليءٌ بالإيمان والتقوى. فكما أن الغرفة تتحول إلى زنزانة مظلمة إن أُغلِقَت أبوابها، كذلك القلب إذا ما أُحيط بحجب الغفلة الناتجة عن الطمع، والجشع، والكبر، والأنانية، والشهوة، والغضب، وأُظلِم بظلمة الذنوب والمعاصي، فإنه يتحول إلى كائن بليد لا إحساس فيه، ينظر إلى الحقائق نظرةً سطحيةً سذاجةً.

إن مشهدَ الطائر الجريح المكسور الجناح يُعد للقلب الرقيق مشهداً يستدعي الرحمة والشفقة، إلا أن هذا المشهد ذاته مشهد مفرح لهرَّةٍ جائعةٍ فهي ترى في ذلك الطائر صيداً سهل المنال.

وهذا حال رجال العلم الذين لم يفلحوا في الارتقاء في الروحانيات على الرغم من قطعهم مسافات متقدمة في سائر العلوم الطبيعية، إذ إنهم وجدوا في كل شيءٍ منفعة مادية، ومكسباً يتم تسويقه واستغلاله واستهلاكه.

الإنسان الذي ينكر وجود الله ولا يدين له بالعبودية، يكون في نظر الله تعالى ونظر المؤمنين جاهلاً ساذجاً أحمقاً حتى ولو نال أعلى الشهادات في أي فرع من فروع العلم، فعلمه علمٌ لا ينفع.

إنهم إذا وُضع أمامهم طعام من اللحم المشوي بدؤوا بتناوله بِشَرَه ونهم، ولكن إذا مرَّت من أمامهم فأرةٌ تركوا ذلك الطعام وجروا خلفَ الفأرة.

فهذه حال النفس التي لم تخضع للتربية والتزكية، تراها تدع السعادة وتجري خلف الشقاء والتعاسة.

وأولئك الذين يدَّعون العلم من المنجذبين إلى الدنيا لا يدركون هذه الحقيقة الإلهية، ولا يرون في هذه الدنيا سوى المنافع المادية.

واليوم يواجه كثير من المخلوقات في العالَم خطرَ الانقراض لجشع مثل هؤلاء وطمعهم. فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وساد التلوث في كل شيءٍ. ولم يعد التقدم الذي حقَّقه العلم أكثر من تطوير السلاح لقتل الناس.

وظهر أيضاً- مع الأسف- بين المسلمين مَن أُعجِبَ بالتقدم الذي حققه أولئك في العلم، وظنوا مثلهم تماماً بأن العلوم والفنون الظاهرة التي لا فائدة فيها إنما هي الغاية الوحيدة التي ينبغي السعي إليها.

لقد جُعِلَ العلم الذي مُنِحَ للإنسان ليكون أداةً لتقوية الإخلاص والإيمان وسيلةً للإلحاد والكفران. وصار الدين والعبادة والالتزام بأوامر الله كأنه من أعمال الجاهلين والسفهاء.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣-٤)

وانتقل مفهوم العلم الذي يُقدِّس المنفعة والمصلحة إلى الحياة الاقتصادية أيضاً، فأصبح المبدأ السائد في العالَم: "دعه يعمل، دعه يمر"، والمعنى الحقيقي لهذا المبدأ:

"لا يهم ما يحصل للمسحوقين".

لقد أوصل هذا النظام الإنسان إلى حال انعدمت فيها الرحمة والشفقة، وسُدَّت آفاق الوجدان وخيَّم عليها الظلام الدامس...

يقولون عن التقدم الحاصل اليوم في قِطَع الحديد التي تُسمَّى بالآلة بأنه حضارة ومدنية، لكن هذه الحضارة كما يقول الشاعر محمد عاكف: "وحشٌ لم يبقَ في فمه إلا ناب".

فمثلاً يتم في عصرنا هذا تصنيع قنبلة ذات قوة تدميرية هائلة. ثم يموت بهذه القنبلة الكثير من الأبرياء من الأمهات، والأطفال، والشيوخ، وحتى الحيوانات والنباتات. لقد حوَّلَ هذا العالَمُ الإنسانَ إلى وحش هائج مفترس. إنها حضارة متوحشة، فليس هناك فرق بين الظالمين الذين كانوا في العصر الجاهلي قبل أربعة عشر قرناً، وظالمي هذا العصر إلا الوسائل والأدوات.

إن الفتح الأساسي هو فتح القلوب، إذ كانت الفتوحات الإسلامية في السابق فتحاً للقلوب فقط، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

عندما يقع بين يدي الإنسان شيء ثمين مثل الذهب، فإنه يحافظ عليه ويتمسك به، فلا يتساهل حتى بذَرَّةٍ واحدة منه. وكلٌّ من البائع والمشتري يستخدم في وزنه أدقَّ آلات الوَزن. وهذا هو حال الوقت، إذ يُعد الوقت أعظمَ النِعَم. ويُعدُّ الإنسان محافظاً على هذه النعمة على قدر استثماره لكل يوم وساعة ودقيقة منها في سبيل تحقيق رضا الله تعالى، ويسجِّل هذا الاستثمار ربحاً أبدياً في دفتر أعماله.



إذا نظرنا اليوم إلى أحوالنا نجد أن احتياجات الإنسان بقيت كما هي على الرغم من التقدم التقني والعلمي، فلم يملأ هذا التقدمُ شيئاً من الفراغ الحاصل على صعيد الإيمان، والطمأنينة، والروحانيات.

فالإنسان الذي ينكر وجود الله ولا يدين له بالعبودية، يكون في نظر الله تعالى ونظر المؤمنين جاهلاً ساذجاً أحمقاً حتى ولو نال أعلى الشهادات في أي فرع من فروع العلم، فعلمه علمٌ لا ينفع.

ومهمة الإنسان هي معرفة الله تعالى أولاً، ثم أداء واجب العبودية له. وكافة العلوم موجودة من أجل خدمة هذه الغاية، فالله ﷻ يريد خضوع العبد له، ويريد تحقيق الشفاء لقلوبنا المريضة التي سقطت في متاهات الغفلة.

نسأل المولى ﷻ أن يجعلنا من المؤمنين الصادقين الذين يبنون حياتهم على الحلال من الرزق، ويؤدون عباداتهم بحقها ظاهراً وباطناً، والذين يزيِّنون أنفسهم بالخصال الحميدة، لنكون ممن يرحمهم برحمته ويُدخِلهم جنانه...

ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا مع أنبيائه وشهدائه وأوليائه الصالحين...آمين!



يقول الله ﷻ:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٨)

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

حمل مجانًا

كتب إسلامية

يمكنكم الآن تحميل حوالي 1300 من الكتب الإسلامية
بـ 55 لغة من الإنترنت مجانًا



كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf
جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.org